الفصل الأول
ألوهية المسيح

أولا: شهادة المسيح عن ألوهيته

شهادة المسيح عن ألوهيته هي بالطبع أهم شهادة بخصوص هذا الموضوع؛ فهو لم يكن يتمتع بشركة متواصلة بالله فحسب بل كانت لديه أيضا قناعة واضحة بكونه، هو نفسه، ذو طبيعة إلهية. هذا ما نراه بوضوح منذ بلوغه الثانية عشرة من عمره، إن لم يكن قبل ذلك، حين أجاب عن سؤال أمه قائلا: "لماذا كنتما تطلبانني؟ ألم تعلما بأنه ينبغي أن أكون فيما لأبي؟" (لوقا2: 49). كانت هذه العبارة في الواقع من التعابير الأكثر شيوعا في تعليم المسيح. ثم أنه نسب لنفسه بكل وضوح مكانة مساوية لله الآب: "أنا والآب واحد" (يوحنا10: 30). وكذلك يذكر الإنجيل مكانة المسيح المساوية للآب كما جاءت في بشارة يوحنا: 5: 23 و 12: 44 و 45، 14: 9 "لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله". و "الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني" "والذي يراني يرى الذي أرسلني" و "الذي رآني فقد رأى الآب".

المسيح وحده يكشف عن الله بحق: "كل شيء قد دفع إليَّ من أبي، وليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يُعلن له" (متى 11: 27). وفي مثل الكرامين الأشرار كشف المسيح عن كونه الابن وارث الكرمة معطيا لنفسه مركزا أسمى من الأنبياء؛ فهو الذي رُفض وذُبح، كما أنه هو الذي صار "رأس الزاوية" (متى21: 33 – 45).

كان عمله مطابقا لعمل الآب: "لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك" (يوحنا 5: 19). وشهادة المسيح عن بنوَّته وعن شركته الخاصة مع الآب وألوهيته كانت أمرا

واضحا لليهود؛ ففي إحدى المناسبات التقطوا حجارة وحاولوا رجمه بها فقال لهم يسوع: "أعمالا كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي. بسبب أي منها ترجمونني؟ أما هم فأجابوا: "لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا" (يوحنا10: 32 و 33). وعندما اشتكوا عليه أمام بيلاطس قالوا: "لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله" (يوحنا19: 7).

وكلمات المسيح التي تفوَّه بها في الأسبوع الأخير من حياته على الأرض هي كلمات الله بالذات، فلو أن إنسانا عاديًا نطق بها لاعتبره البشر مجدفا. لكن يسوع حثَّ تلاميذه على أن يكون إيمانهم به نفس الإيمان الذي لهم في الله: "أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي" (يوحنا14: 1). كما أنه أخبرهم بأنه سينطلق إلى السماء ليعدَّ لهم مكانا وأنه سيعود ليأخذهم إليه. كما أنه كشف عن كونه "الطريق والحق والحياة" وأنه لا يمكن لإنسان أن يأتي إلى الآب إلا به. من يعرفه يعرف الآب، ومن يراه يرى الآب، فهو والآب واحد.

هو ذاهب إلى الآب وكل صلوات يرفعونها باسم يسوع تكون مقبولة. ووعد يسوع المسيح تلاميذه بأنه سيرسل إليهم الروح القدس الذي هو الأقنوم الثالث في الثالوث الأقدس، ذلك أن الروح القدس يقوم بوظيفة المعزي والرفيق والمعلم؛ فهو الذي يحفظ تعاليمهم من الخطأ، وهو الذي يعطي البصيرة الروحية لكل المؤمنين. وكشف المسيح بأنه هو المصدر الحقيقي لحياة الكنيسة، وعلى كل مؤمن أن يكون متَّحدا به كما أن كل غصن حي يبقى متصلا بالشجرة. هم لم يختاروه بل هو الذي اختارهم حتى أنه قد أصبحت بينهم وبين "العالم" هوة عظيمة. والعالم الساقط في حمأة الشر والخطية يبغض المسيح، ومن يبغض المسيح يبغض أباه أيضا. وكشف يسوع عن كون كل الأشياء التي للآب هي له وكل ما يُطلب من الآب باسمه يُعطى؛ فهو قد خرج من عند الآب وأتى إلى العالم وكان مزمعا أن يترك العالم ليعود إلى الآب.

في صلاته الشفاعية في الفصل السابع عشر، من الإنجيل حسب يوحنا، طلب المسيح من الآب أن يمجِّد الابن (أي يسوع نفسه) وقد بنى طلبه هذا على أساس أن تمجيد الابن يؤول إلى تمجيد الآب أيضا. ثم إننا في تلك الصلاة نرى بأنه نسب لنفسه سلطة منح الحياة الأبدية لجميع الذين أعطاه إياهم الآب، وهي الحياة الناتجة عن معرفة الله التي ترتبط بمعرفة يسوع بالذات. لكن يسوع ذكر أيضا بأن المجد الذي طلبه من الآب هو نفسه المجد الذي للآب وهو أيضا ذات المجد الذي شارك فيه الآب أصلا قبل تكوين العالم.

وأثناء محاكمته أمام مجلس السبعين شهد يسوع المسيح جهارا وعلانية بألوهيته. وعندما تمت المحاكمة حُكم عليه بالموت لأنه كان قد نطق "بتجديف" إشارة إلى شهادته عن ألوهيته؛ فقد سأله رئيس الكهنة: "أأنت المسيح ابن المبارك؟" (مرقس14: 61). وأجاب يسوع: "أنا هو وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة وآتيا في سحاب السماء" (مرقس14: 62). "فمزق رئيس الكهنة ثيابه وقال ما حاجتنا بعد إلى شهود، قد سمعتم التجديف ما رأيكم؟ فالجميع حكموا عليه بأنه مستوجب الموت" (مرقس14: 63و64).

وعندما أسند المسيح إلى تلاميذه الرسالة العظمى (أي المناداة بالإنجيل في سائر أنحاء العالم) بعد قيامته من الموت، وقبل صعوده إلى السماء قال لهم: "دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض؛ فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (متى28: 18- 20).

نلاحظ من كلمات السيد المسيح هذه أنه أورد اسمه في لائحة أسماء الثالوث الأقدس؛ إذ أوصى بأن على المؤمنين به أن يعتمدوا بذلك الاسم واعدا إياهم بأن يكون معهم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر. وعندما نسب إلى نفسه "كل سلطان في السماء وعلى الأرض "كان يعني بأنه يملك القدرة على كل شيء. أما كونه مع أتباعه كل الأيام

وإلى انقضاء الدهر فيعني كونه موجودا أو حاضرا في كل مكان. ثم إن ممارسة المعمودية "باسم الآب والابن والروح القدس" يُضفي صيغة في غاية الأهمية بالنسبة لهذه الفريضة المقدسة . ونلاحظ أن الصيغة هي صيغة الجمع (الآب والابن والروح القدس) ثلاثة أقانيم أو كيانات مميزة، لكل واحد اسم خاص به. ثم نلاحظ أنه لم يقل باسم الآب وابن وروح قدس بحذف أل التعريف عن أقنومي الابن والروح القدس، كما لو أن الأمر كان يخص أقنوما واحدا له ثلاثة أسماء، فالأمر هو بعكس ذلك. كل أقنوم في الثالوث الأقدس سُمِّي بصيغة المفرد، و"أل التعريف" كُرِّرت لكل منهم بصورة دقيقة وواضحة. فمع أن الأقانيم الثلاثة موحَّدون في طبيعة وصفة واحدة (أي الله) إلا أنهم يبقون مميزين كأقانيم، الواحد عن الآخر. فما أكده يسوع المسيح في هذه الوصية هو أن إيمان أتباعه ومن يؤمنون بواسطة مناداتهم بالإنجيل مبني على اسم الله المثلث الأقانيم "الآب والابن والروح القدس". ومما لا شك فيه أنه قد أشار إلى نفسه في اسم "الابن" واضعا نفسه على ذات المرتبة مع "الآب" و"الروح القدس"، ذلك أنه معهما الإله الواحد السرمدي الكائن بذاته.

شهد يسوع المسيح بأنه يتمتع بصفة الألوهية، ولابد لكل من يدرس العهد الجديد (أي الإنجيل) بطريقة موضوعية من أن يصل إلى نفس النتيجة. وهذا هو الانطباع السائد بين الجماهير الغفيرة من قراء العهد الجديد عبر العصور والأجيال.

ثانيا: شهادة الرسل لألوهية المسيح

تقف شهادة من شاركوا في كتابة أسفار الإنجيل (العهد الجديد) في انسجام تام مع تعاليم المسيح وشهادته عن ألوهيته. لقد ظهر الملاك جبرائيل لزكريا وأخبره بأنه سيكون له ولامرأته أليصابات ابنا تُسند إليه مهمة خاصة ألا وهي: "لكي يهيئ للرب شعبا مستعدا" (لوقا1: 17). والملاك نفسه عندما كشف لمريم بأنها ستكون أمًّا للمسيح المنتظر أخبرها بأن ذلك الطفل "يكون عظيما وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية" (لوقا1:

32و 33). هذه المزايا لا يمكن أن تكون لأي كائن ما لم يكن إلهًا بالفعل. "اسمه يدعى يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم" (متى1: 21). هذه مهمة لا يمكن لشخص أقل من الله بالذات أن ينجزها. والبشير متى عندما أتى على ذكر إحدى نبوات العهد القديم الخاصة بالمسيح قال: "هذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا" (متى1: 22و 23)، وهي نبوة مستقاة من سفر إشعياء7: 14. أما المجوس (حكماء المشرق) الذين كانوا قد أعطوا بصيرة روحية معجزية بعد سفرتهم الطويلة، سعيًا وراء الملك الموعود به، فما أن وصلوا إلى بيت لحم – مكان ولادة يسوع – حتى "خروا وسجدوا له" (متى2: 11). والركوع والسجود له بهذا الأسلوب ما هو إلا جهل وتجديف لو لم يكن المسيح متمتعا بطبيعة إلهية.

لقد شهد يوحنا المعمدان عن نفسه بأنه ليس سوى مُجهِّز ومُمهِّد لطريق الآتي بعده، لا بل وإنه تخطى ذلك عندما صرَّح بأن الآتي بعده أعظم منه بكثير، حتى أنه لم يكن مستحقا أن يحل رباط حذائه، أي أنه لم يكن مستحقا أن يكون خادما له. وعندما ظهر المسيح وتعمد بالماء على يده بعد إصرار مُلِح، رأى يوحنا المعمدان "السموات مفتوحة وروح الله نازلا عليه (أي على يسوع المسيح) وصوت (الله الآب) من السماء قائلا: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت" (متى3: 17). وفي اليوم التالي أشار يوحنا إلى يسوع قائلا: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" و"... الذي يُعَمِّد بالروح القدس"، و"هذا هو ابن الله" (يوحنا1: 29، 33، 34).

في مقدمة الإنجيل حسب يوحنا1:1 نجد تصريحا واضحا لا يعتريه شك عن ألوهية المسيح: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله". وقد نسب الرسول يوحنا هذا (وهو غير يوحنا المعمدان) إلى المسيح يسوع أمورا لا تُنسب لغير الله بكل ما في ذلك من معنى، *فالكلمة* وسيلة التعبير عن *الفكر*، ووراء كل كلمة تكمن فكرة خاصة. *ونسبة الكلمة إلى الفكر* هي بالذات *نسبة المسيح إلى الله*. الكلمة تكشف عن فكرة معينة والمسيح يكشف عن الله بالذات. فالمسيح جاء ليُظهر الله للبشر: "الله

لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر" (يوحنا1: 18). إن أزلية المسيح كُشف عنها في مضمون التعبير "في البدء". عند بدء أو خليقة العالم كان المسيح "موجودا". الفعل هو بصيغة الماضي التام في اللغة الأصلية (اليونانية) وهو يُبرز فكرة وجود المسيح يسوع الأزلي. وقد عَبَّر عن ذلك أحد كبار اللاهوتيين بقوله: "الكلمة كان عند الله منذ الأزل، في رفقة الآب كأقنوم مشارك في اللاهوت (أي الألوهية)، ومع أنه كان هكذا أقنوما مميزا، لم يكن كائنا منفصلا عن الله، فالكلمة كان الله".

في مقدمة الإنجيل حسب يوحنا أيضا اعتُبر "الكلمة (المسيح) "كائنا قبل التاريخ. ليس ذلك فقط بل نرى أن كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (العدد الثالث). أما في العدد الرابع عشر فنقرأ: "والكلمة صار جسدا وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الآب مملوءا نعمة وحقا". والبشير يوحنا نفسه في رسالته الأولى4: 2 قال عن المسيح: "قد جاء في الجسد"، فهو يريدنا أن ندرك بأن المسيح لم يكن مجرد رفيق الله الأزلي، بل أنه هو الله الأزلي بالذات. استعمل يوحنا كلمة "جسد" ليشير بصورة عامة إلى الطبيعة البشرية بما تتضمنه من محدودية وضعف. بذلك كشف في مقدمة الإنجيل بكل بساطة عن حقيقة الله الأزلي وهو يأخذ وجودا يشارك فيه الاختبار البشري العادي مع البشر. وبإيجاز فإن الله تجسد في الإنسان يسوع المسيح، "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (1تيموثاوس3: 16).

وعندما جاهر الرسول بطرس بشهادته العظمى، لم يكن يعبر عن مجرد معتقده الشخصي، إنما كان يعبر عن معتقد غالبية التلاميذ حين قال ليسوع: "أنت هو المسيح ابن الله الحي" (متى16: 16). وهكذا نرى أنه مع مواصلة يسوع الكشف عن ألوهيته للبشر فإن توما، أكثر التلاميذ تشككا، وصل إلى مرحلة السجود عند قدمي المسيح والاعتراف بالقول: "ربي وإلهي" (يوحنا20: 28). هذا القول قبله المسيح بلا تردد، ولذلك يمكن اعتباره تأكيدا مباشرا من المسيح نفسه وجزءا لا يتجزأ من قناعته الشخصية بألوهيته. كما أن قيام الرسل بالمعجزات هو دليل إضافي على ألوهية

المسيح؛ فالمعجزة التي شفى بها بطرس الرجل الأعرج الواقف على باب الهيكل، فعلها بطرس باسم المسيح إذ قال للرجل: "باسم يسوع المسيح الناصري قم وامش" (أعمال الرسل3: 6)، وبالفعل مشى الرجل وزالت علته. لكن ذلك أغاظ زعماء اليهود الذين اعتقلوا بطرس ورفيقه يوحنا وباشروا محاكمتهم. وفي معرض رد بطرس على اتهاماتهم واعتراضاتهم قال: "إن كنا نُفحص اليوم عن إحسان إلى إنسان سقيم بماذا شُفِي هذا، فليكن معلوما عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله من الأموات، بذاك وقف هذا أمامكم صحيحا" (أعمال الرسل4: 9و 10). وعندما أخرج الرسول بولس الروح الشرير من امرأة قال: "أنا آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها" (أعمال الرسل16: 18). أما استفانوس أول شهيد مسيحي شهد قبل موته قائلا: "أنا أنظر السموات مفتوحة وابن الإنسان قائما عن يمين الله" (أعمال الرسل7: 56).

لقد شهد بولس في تعليمه مرارا وتكرارا لألوهية المسيح، فحالما اهتدى إلى المسيح ذهب إلى مجامع اليهود في دمشق وشرع يبشر بالمسيح قائلا: "إن هذا هو ابن الله" (أعمال الرسل9: 20). وقد كشف في رسالته إلى أهل كولوسي عن كون المسيح "صورة الله غير المنظور" (كولوسي1: 15)، كما أنه صرح بأن "فيه يحل كل ملء اللاهوت (أي الله) جسديا" (كولوسي2: 9)، كذلك ذكر بولس إلى أهل كورنثوس بأن "الله كان في المسيح مصالحا العالم لنفسه" (2كورنثوس5: 19). وفي رسالته إلى أهل رومية عندما أشار إلى كون اليهود أنسباء المسيح ذكر موضوع ألوهية المسيح فقال: "ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلها مباركا إلى الأبد" (رومية9: 5). كذلك نجد بولس يحث المسيحيين في مقاطعة فيلبي على اتباع مثال المسيح في التواضع والخدمة ويقول: "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضا الذي إذ كان في صورة الله (أي مشاركا كليا في الطبيعة الإلهية أي الصفات التي يتمتع بها الله)، لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله (أي أنه لم يختر عن أنانية أن يبقى في تلك الحالة المباركة، بينما يظل البشر تحت وطأة الخطية والبؤس)، لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا في شبه الناس، وإذ وُجِد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى

الموت موت الصليب" (فيليبي2: 5 – 8). وهكذا أصبح إنسانا قابلا لنفسه محدودية الطبيعة البشرية. قدم نفسه وهو الإله المتجسد كبديل عن شعبه، وهكذا أيضا أنجز عمله الخلاصي في حمله للعقاب المفروض على خطاياهم (ألا وهو الألم والموت بالنيابة عنهم). ويضيف: "لذلك رفعه الله أيضا" (أي أن المسيح الإله المتجسد رُفِع وليس المقصود هنا إضافة لطبيعته الإلهية، فهي كاملة لا ينقصها شيء، بل إن الطبيعة البشرية المتواضعة التي أخذها المسيح على نفسه هي التي أعطِيَ لها المجد والإكرام). ويتابع الرسول فيقول إن الله الآب "أعطاه اسما فوق كل اسم" ألا وهو اسم "يسوع" (أي مخلص) "لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء، ومن على الأرض، ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان بأن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب" (فيلبي2: 9 -11). (التعبير رب يدل هنا على الربوبية أو الألوهية المطلقة)، فإن أولئك الذين أوحَى إليهم الله بكتابة العهد الجديد أشاروا إلى المسيح بتعابير وأوصاف وأسماء العهد القديم نفسها التي استعملت بشأن الله، فهم أشاروا إليه كـ"أدوناي" وهو الاسم العبري الذي يعني "رب" وكلمة رب تستعمل أيضا عندما يكون الاسم العبري "يهوه" الذي يعني "الرب الإله".

عندما ننتقل إلى الرسالة إلى العبرانيين فإننا نجد أن الكاتب ينسب الربوبية والألوهية للمسيح، فيبدأ بالقول بأن الله كان قد كلم البشر في الأزمنة القديمة (أي في أيام العهد القديم) بواسطة الأنبياء مستخدما أساليب متنوعة، ثم يواصل فيقول بأن الله "كلمنا في هذه الأيام الأخيرة (أي حقبة العهد الجديد) في ابنه الذي جعله وارثا لكل شيء، الذي به أيضا عمل العالمين، الذي وهو وبهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعدما صنع بنفسه تطهيرا لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي" (عبرانيين1: 1 – 3).

أما الرسول يوحنا، كاتب سفر الرؤيا فيخبرنا في معرض وصفه للمدينة السماوية المقدسة "أورشليم الجديدة" بأنها "لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها؛

لأن مجد الله قد أنارها والخروف سراجها" (سفر الرؤيا21: 23). والتعبيران "الله" و"الخروف" هنا هما مترادفان يتحدثان عن واحد وهو يسوع المسيح.

لقد قام جميع من أوحى إليهم الله بكتابة أسفار الإنجيل (العهد الجديد) بتسجيل تعاليم ومعجزات ومواعيد المسيح مفترضين واقع كلامه عن ألوهيته، وكانوا هم أيضا أعظم وأنسب وأصدق شهود لألوهيته إذ كانوا قد عرفوه عن كثب. قال عنهم المسيح: "وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء" (يوحنا15: 27). أما سجلات التاريخ منذ نشأة الكنيسة المسيحية فكلها تظهر أنهم قد قدموا شهاداتهم لسيدهم وربهم بكل أمانة، وكثيرون منهم استشهدوا في سبيل إيمانهم بالمسيح يسوع. وفوق شهاداتهم نجد شهادات أولئك المؤمنين الذين لم ينتسبوا إلى مجموعة رسل المسيح، فمثلا نجد قائد الكتيبة الرومانية التي أشرفت على الصلب، إذ أبصر المسيح مصلوبا أعلن قائلا: "حقا كان هذا الإنسان ابن الله" (مرقس15: 39). وأما الأبالسة (الكائنات الملائكية الذين سقطوا وأصبحوا شياطين) والذين كانوا على معرفة بعظمة المسيح الإلهية قبل تجسده، فإنهم عندما أمرهم المسيح بأن يخرجوا من الأشخاص الذين كانوا قد سيطروا عليهم، قالوا فيما هم خارجون: "ما لنا ولك يا يسوع ابن الله؟ أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا؟" (متى8: 29).

إن قيامة المسيح من الأموات هي البرهان القاطع الذي لا مهرب منه على كونه ذا طبيعة إلهية. لم يكن موت المسيح وقيامته رغم إرداته، بل على العكس كانا في نطاق قوَّته وخياره الثابتَيْن. عندما تكلم المسيح عن حياته قال: "ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضا" (يوحنا10: 18). وهو كان قد تنبأ مرارا عن قيامته من الموت قائلا: "وابن الإنسان يسلم إلى رؤساء الكهنة والكتبة فيحكمون عليه بالموت ويسلمونه إلى الأمم... ويقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم" (متى20: 19 ومرقس8: 31 و9: 31 و10: 33 – 34، ولوقا18: 33 و 24: 7). ويشير بولس إلى القيامة كبرهان جازم على لاهوت المسيح فيقول: "تعيَّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات" (رومية1: 4).

ثالثا: الألقاب وصفات المسيح الإلـهية

1- الألقاب المنسوبة للمسيح

"يسوع" هو الاسم الذي يعني مخلِّص أو منقذ وهو ما نسبه الملاك للمسيح عندما كشف حقيقة مجيئه لكل من يوسف ومريم. قال الملاك ليوسف: "وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم" (متى1: 21). وقال لمريم: "ها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع" (لوقا1: 31). "يسوع" هو الصيغة اليونانية للإسم العبري "يشوع" الذي يعني "يهوه هو الخلاص". أما وقد دُعي المسيح بـ"يسوع" فإن ذلك إنما عبَّر عن مركزية المهمة الخلاصية التي جاء لينجزها.

واسم المسيح يعني الممسوح وكان اللقب الرسمي للمخلِّص. وكثيرا ما استُعمل كاسم علم، وهو يأتي من الأصل العبري "مشيح" أي "مسيًّا" والذي أصبح "كريستوس" في اليونانية التي هي اللغة الأصلية للعهد الجديد. فاللقب "مسيح" يعني الممسوح من قبل الرب وهذا له أساس قوي ومتواصل في تاريخ الشعب العبري عندما كان يتم احتفال تتويج ملوكهم بالمسح بالزيت. (راجع صموئيل الأول9: 16و 10: 1 وسفر صموئيل الثاني19: 10). فالملك كان يدعى أحيانا "مسيح يهوه" (راجع سفر صموئيل الأول 24: 6). إذن لقب "المسيح" هو للتذكير بأن الملك هو من أعلى طراز، أما الاسم المركب "يسوع المسيح"، فالمقصود منه هو "المخلص الممسوح" أي المخلص المتمتع بأسمى مكانة من وجهة نظر الله.

تُبين لنا سجلات العهد الجديد حقيقة هامة هي أن يسوع تقبل من الناس ما أسدوا عليه من أسمى الألقاب؛ فقد سمح لهم بأن يَصِفوه بما يوصف به الله. وعندما مَنَع الآخرين من تقبُّل ألقاب مثل "المعلم" أو "السيد" (متى23: 8 -10) نجده قد قبل لنفسه بأن يُدعى بتلك الألقاب (يوحنا4: 31و 9: 2)، بل أنه أكثر من ذلك امتدح من أعطوه إياها إذ قال: "أنتم تدعونني معلما وسيدا وحسنا تقولون لأني أنا كذلك"

(يوحنا13: 13). وعندما كانوا يهيئون دخوله للقدس في موكب رسمي أرسل المسيح اثنين من تلاميذه ليأتيا بجحش وأمرهما بأن يقولا لصاحبه بأن "الرب محتاج إليه" (مرقس11: 3). ويدعى المسيح عبر صفحات العهد الجديد "سيدا" ليس بمجرد المعنى الذي فيه يقدم للبشر قسطا من السلطة والشرف أو المكانة، بل بمعنى كونه حقا السيد الأسمى ومطلق السيادة في ملكوته، وهو رب المسيحيين المؤمنين به مثلما كان اليهود يؤمنون بأن يهوه هو الرب في أيام العهد القديم.

قيل عنه في الإنجيل حسب لوقا2: 11 و 6: 5 "يولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب" و"ابن الإنسان هو رب السبت". وفي الرسالة إلى فيلبي 2: 11و 4: 5 "....يعترف كل لسان بأن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب"، ثم "الرب قريب".

في الرسالة الأولى إلى كورنثوس2: 8 لُقّب: "رب المجد" وورد في الإنجيل حسب متى15: 22 "ارحمني يا سيد"، وكتب بولس الرسول في الرسالة إلى رومية10: 9 "لأنك ان اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت". ومن سفر أعمال الرسل10: 36 "يُبشِّر بالسلام بيسوع المسيح. هذا هو رب الكل". ويضيف سفر الرؤيا في4: 8 و4: 11 و19: 16 ما يلي:
"قدوس، قدوس، قدوس الرب الإله القادر على كل شيء الذي كان والكائن والذي يأتي"، "أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخُلقت"، "وله على ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب، ملك الملوك ورب الأرباب".

إذن يُقر الوحي المقدس بأن المسيحَ رب للجميع، للذين في السماء كما للذين على الأرض. له يجب أن تسجد جميع المخلوقات اعترافا بسلطانه المطلق. وحده له الحق فينا والسلطان علينا لأنه الخالق والفادي.

لقد استعمل الرسول بولس عادة اصطلاحا تقديميا في رسائله هو: "الله أبونا والرب يسوع المسيح" كشهادة إيمان مسيحية لله" (راجع الرسالة إلى رومية1: 7 والرسالة الأولى إلى كورنثوس1: 3 والرسالة الثانية إلى كورنثوس1: 2 والرسالة إلى غلاطية1: 3)، هذه الصيغة المركبة هي إشارة للإله الذي يعبده المسيحيون، وهي تشير لكل من الآب والابن في مساواة مطلقة. هكذا يتضح أن الآب والابن متحدان معا، دونما أي انفصال أو تفريق بينهما في وحدانية جوهرهما، ومع ذلك فإنهما يتمتعان باستقلال ذاتي؛ فبعض الأعمال تُنسب للواحد دون الآخر؛ مثلا في الرسالة إلى غلاطية1:1،4 نقرأ عن "يسوع المسيح والله الآب وربنا يسوع المسيح، الذي بذل نفسه لأجل خطايانا"، أما البركة الرسولية فهي كما يلي: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم. آمين" (2كورنثوس13: 14)، ففيها يبقى اسم الرب يسوع المسيح مرتبطا في مساواة مطلقة مع اسمي الله الآب والله الروح القدس كمصدر لكل بركة روحية.

كانت قد نسبت أسماء متنوعة وكثيرة لله في العهد القديم نسبها العهد الجديد أيضا للمسيح؛ فالبشير متى عند تسجيله لولادة المسيح نسب إليه الاسم عمانوئيل إذ يقول: "وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا" (متى1: 22و 23). ففي نبوة إشعياء 7: 14 نقرأ "هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل". في العهد الجديد يبرز المسيح كملكنا وفادينا في هيئة شخصية أزلية. ويقول الرسول يوحنا في معرض وصفه للرؤيا التي رآها عن عظمة المسيح المتسلط على كل شيء: "فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت فوضع يده اليمنى عليَّ قائلا لي لا تخف أنا هو الأول والآخر، والحيّ وكنت ميتا وها أنا حي إلى أبد الآبدين! آمين، ولي مفاتيح الهاوية والموت" (الرؤيا1: 17 - 18). وفي نبوة إشعياء44: 6 نقرأ: "هكذا يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه، رب الجنود، أنا الأول وأنا الآخر،ولا إله غيري". وكما رأينا فإن يسوع المسيح يُدعَى "ربًّا" مرارا وتكرارا في العهد الجديد. لكن هذا الموقف لا ينفرد به العهد الجديد وحده؛ فالعهد القديم، في معرض التنبؤ عن المسيح، أشار إليه بوضوح أحيانا بنفس اللقب.

هذا ما نجده في مزمور110: 1 "قال الرب لربي، اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك" (قابل هذا بما ورد في الإنجيل حسب متى22: 44 حيث ينسب المسيح لنفسه تلك الإشارة في سفر المزامير). كذلك نقرأ في نبوة ملاخي3: 1 "ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه".

نسب العهد الجديد ليسوع اسم "الله" أكثر من عشر مرات (راجع يوحنا1:1 و18و 20: 28 ورسالة يوحنا الأولى5: 20 والرسالة إلى العبرانيين1: 8 ورسالة الرسول بطرس الثانية1: 1 وسفر أعمال الرسل18: 26 و20: 28 والرسالة إلى رومية9: 5 والرسالة الثانية إلى تسالونيكي1: 12 والرسالة إلى تيطس2: 13 والرسالة الأولى إلى تيموثاوس3: 16).

ما يتفق عليه علماء تفسير الكتاب من شتى المذاهب هو أن يسوع، حسب كتاب العهد الجديد، هو نفسه رب العهد القديم؛ فكتبة العهد الجديد ينسبون للمسيح تعابير من العهد القديم هي في أصلها كانت تشير إلى "أدوناي" أو "يهوه" اسمي الألوهية في العهد القديم. (قابل نبوة إشعياء40: 3 مع الإنجيل حسب مرقس 1: 3 ونبوة يوئيل2: 32 مع سفر أعمال الرسل2: 21 والرسالة إلى رومية10: 13 ونبوة إشعياء45: 23 مع الرسالة إلى فيليبي2: 10 .... قابل أيضا نبوة إرميا9: 24 مع الرسالة الأولى إلى كورنثوس1: 31 والرسالة الثانية إلى كورنثوس10: 17 ومزمور68: 18 مع الرسالة إلى أفسس4: 8، ونبوة إشعياء2: 19 مع الرسالة الثانية إلى تيموثاوس4: 14 وسفر الرؤيا22: 13).

علينا أن نلاحظ إذن بأن المسيح يدعى في العهد الجديد بالألقاب التالية:

في الإنجيل حسب متى:

"يسوع، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم" 1: 21
"عمانوئيل ، أي الله معنا " 1: 23

"المسيح ابن الله الحي"	16 :16
"يسوع المسيح"	20 :16
"ابن الإنسان"	9 :17
"معلم"	10 :23

في الإنجيل حسب لوقا:

"يسوع الناصري، قدوس الله"	34 :4

في الإنجيل حسب يوحنا:

"الكلمة"	1 :1
"كل شيء به كان"	3 :1
"كُوِّن العالم به"	10 :1
"الابن الوحيد"	18 :1، 3: 16
"ابن الله"	34 :1 و49
"ملك إسرائيل"	49 :1
"المسيح مخلص العالم"	42 :4
"الخبز الحي"	51 :6
"الباب"	7 :10
"الراعي الصالح"	11 :10
"القيامة والحياة"	25 :11
"المسيح ابن الله الآتي إلى العالم"	27 :11
"الطريق والحق والحياة"	6 :14
"الكرمة الحقيقية"	1 :15

في سفر أعمال الرسل:

"القدوس البار" 3: 14
"رئيس الحياة" 3: 15
"مخلص" 5: 31

في الرسالة إلى رومية:

"إلها مباركا" 9: 5

في الرسالة الأولى إلى كورنثوس:

"قوة الله وحكمته" 1: 24
"رب المجد" 2: 8
"رأس كل رجل" 11: 3

في الرسالة الثانية إلى كورنثوس:

"صورة الله" 4: 4

في الرسالة إلى غلاطية:

"فادي" 3: 13

في الرسالة إلى فيلبي:

"رب" **2: 11**

في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس:

"رب الأرباب" **6: 15**

في الرسالة إلى العبرانيين:

"وارث لكل شيء" **1: 2**
"بهاء مجد الله ورسم جوهره" **1: 3**
"رئيس الخلاص" **2: 10**
"رئيس كهنة عظيم" **4: 14**
"رئيس الإيمان" **12: 2**
"وسيط" **12: 24**

في رسالة بطرس الثانية:

"المخلص" **1: 1**

في سفر الرؤيا:

"الرب الكائن" **1: 8**
"الكائن والذي كان والذي يأتي" **1: 8**
"القادر على كل شيء" **1: 8**
"الأول والآخر" **1: 17**

"الحي" 1: 18
"الألف والياء البداية والنهاية" 21: 6

2- الصفات المنسوبة للمسيح

نجد عبر صفحات العهد الجديد أن الخصائص والصفات الإلهية تُنسب تكرارا للمسيح، ذلك ليس على سبيل المجاملة كما في حالات امتداح أناس أتقياء، بل إن ما يُنسب إلى المسيح من صفات هو من النوع الذي لا يمكن أن يُنسب سوى إلى الله وحده. فيما يلي نتعرض لقائمة بتلك الصفات.

1- القداسة (الطهارة)

في الإنجيل حسب يوحنا 6: 69 نجد إقرارا مُهما أعلنه الرسول بطرس عن المسيح الذي آمن به: "أنت المسيح ابن الله الحي". وفي رسالته الأولى يقول بطرس عن سيده: "لم يفعل خطية ولا وُجد في فمه مكر" (2: 22). ويصرح الرسول بولس بدوره فيقول عن المسيح: "لم يعرف خطية" (2كورنثوس5: 21). أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فيقول في المسيح: "قدوس بلا شر ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة..." (7: 26). وقد تحدث المسيح نفسه عن قداسته وكماله؛ ففي يوحنا 8: 29 يقول مشيرا إلى كمال أخلاقه وعصمته عن الخطأ بالنسبة لشريعة الله: "لأني في كل حين أفعل ما يرضيه" وفي يوحنا8: 46 تحدى معارضيه الذين سعوا للتشكيك في نزاهته قائلا: "من منكم يبكتني على خطية". إضافة إلى ذلك فإن الإنجيل يحدثنا عن إقرار الشياطين ألدّ أعدائه فيقولون عنه: "قدوس الله" (مرقس1: 24). هذه كلها اعتبارات مهمة، خاصة وأن الكتاب المقدس لا يسمح بأن تُضفى صفات من الكمال كهذه على أي من خلائق الله.

2- الأزلية

مقدمة الإنجيل حسب يوحنا لها مقامها الفريد من جهة الكشف عن أزلية المسيح؛ ففي العدد الأول نرى تعريفا مهما للمسيح ككلمة الله المتجسد: "في البدء كان الكلمة"، وفي نفس الإنجيل هناك تصريحات واضحة على فم المسيح نفسه عن أزليته، فيقول عن نفسه: "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يوحنا8: 58)، ثم في صلاته الشفاعية الخاصة صلى المسيح للآب قائلا: "مجدني بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" (يوحنا17: 5)، "لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يوحنا17: 24). بالإضافة إلى هذا نجد مضمون النبوات التي تحدثت عن المسيح في أسفار أنبياء العهد القديم قبل مجيئه بمئات السنين؛ فالنبي إشعياء دعاه في سفره "أبا أبديًّا" (9: 6). والنبي ميخا قال عنه: "مخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل" (5: 2). إذن المسيح هو ملك جميع الدهور.

3- مصدر الحياة – خالقها ومبدعها

تطرق الوحي الإلهي إلى وصف المسيح في الإنجيل حسب يوحنا كما يلي:

- **فيه كانت الحياة (1: 4).**
- **أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي (14: 6).**
- **أنا هو القيامة والحياة (11: 25).**
- **لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضا أن تكون له حياة في ذاته (5: 26).**

فليس المسيح إذن مجرد مصدر للحياة فحسب، بل إنه هو الحياة الحقيقية ذاتها.

4 – الثبات المطلق وعدم التغيّر

توجز الرسالة إلى العبرانيين وتحسم الأمر هكذا: "يسوع المسيح هو هو أمسا واليوم وإلى الأبد" (13: 8).

"وأنت يا رب (إشارة إلى المسيح) في البدء أسست الأرض والسموات هي عمل يديك، هي تبيد ولكن أنت تبقى وكلها كثوب تبلى، وكرداء تطويها فتتغير ولكن أنت أنت وسنوك لن تفنى" (عب1: 10 – 12).

5- المقدرة المطلقة على كل شيء

لم يتردد الرب يسوع المسيح مطلقا في الكشف عما لديه من قدرة وجبروت في الوقت المناسب. هذا لا يقتصر على مجرد إنجاز المعجزات والعجائب، بل أيضا تصريحاته عن هذا الموضوع التي لا غموض فيها: "دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى28: 18)، "كل شيء قد أعطي إليَّ من أبي" (متى11: 27).

كما كتب الرسول بولس بوحي من الروح القدس في رسالته التعليمية إلى المؤمنين في أفسس: "وأخضع (أي الله الآب) كل شيء تحت قدميه وإياه جعل رأسا فوق كل شيء للكنيسة" (أفسس1: 22). أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فيعرِّف المسيح هكذا: "....حامل كل الأشياء بكلمة قدرته...." (1: 3). وفي سفر الرؤيا يخبرنا الوحي أن المسيح هو "الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء" (1: 8). والنبي إشعياء تنبأ عنه قائلا: "إلها قديرًا" (إشعياء9: 6).

لكن الأمر لم يقتصر على مجرد إعلانات، إنما ما قيل في المسيح، سواء على فمه هو أو على فم غيره بوحي من الله، كان دائما مدعما بالأعمال الخارقة للطبيعة، والتي أجريت علنا وشهد لها الجميع، الأصدقاء والأعداء على السواء؛ فقد أقام الموتى (راجع يوحنا11: 43و 44 ولوقا 7: 14)، وكشف أنه هو الذي سينجز عملية القيامة الأخيرة لجميع الأموات عندما قال: "فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة (يوحنا5: 28و 29).

6- العلم المطلق بكل شيء

قال التلاميذ للرب يسوع المسيح: "الآن نعلم أنك عالم بكل شيء...." (يوحنا16: 30). والإنجيل المقدس يكشف لنا حقيقة علم المسيح بما يجري في عقول وأفئدة البشر؛ فعندما صرح للمفلوج بغفرانه لمعاصيه كشف في نفس الوقت عن الاشمئزاز الصامت لمعارضيه بتصريحه هذا: "فعلم يسوع أفكارهم فقال لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم" (متى9: 4).

وهذا ما يسجله أيضا البشير يوحنا:

"لكن يسوع لم يأتمنهم على نفسه لأنه كان يعرف الجميع، ولأنه لم يكن محتاجا أن يشهد أحد عن الإنسان لأنه علم ما كان في الإنسان" (2: 24و 25).
"لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يسلمه" (6: 64).
"فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه" (18: 4).

وورد في رسالة بولس إلى المؤمنين في كولوسي أنه ".....المدَّخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم" (2: 3). وقال المسيح عن نفسه: "وليس أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن" (متى11: 27). إن ما يكشف عنه المسيح هنا هو في غاية الأهمية؛ فهو يفهمنا حقيقة أمر تفهم ألوهيته من الأساس، ذلك أن ذاته وكيانه اللاهوتيين هما على درجة شاهقة من العظمة حتى أنه لا يمكن لأحد غير الله نفسه استيعابهما. ليس ذلك فقط بل أوضح المسيح لنا من جهة أخرى بأن طاقة معرفته اللاهوتية هي غير محدودة، كمعرفة الله الآب الكاملة والتامة.

من هذا يتضح أن الإنجيل كشف وأكد بكل وضوح أن يسوع كان يتمتع بعلم وحكمة لا حدود لهما. قال أحد المفكرين بهذا الأمر: "إن أعظم الدلائل على قدرة المسيح

الخارقة في فحص وتحليل وقراءة ما يتضمنه قلب الإنسان من أسرار، هي ما كشف عنه بخصوص كل من نثنائيل والمرأة السامرية وتلميذه الخائن يهوذا وتلميذه المغرور بنفسه بطرس. لقد أخبر المسيح وأشار إلى وقائع المستقبل فتحدث عن موته وقيامته وعودته إلى الأرض". إن مسيرة التاريخ كانت مفتوحة أمام عينيه، فهو قد تتبع متضمنات ما سبق وصار، وهو رأى مسبقا الأعمال المعجزية الخارقة التي كان سينجزها تلاميذه، كما أنه أخبر عن هزيمة إبليس العتيدة وانتصار ملكوت الله الذي يلازم ذلك. فالأرض والسماء، الأزل والأبد، الله والإنسان، كل شيء مكشوف أمام عينيه.

7- الوجود الكلي الذي لا يحده مكان ولا زمان

عرَّفت بشارة يوحنا المسيح على أنه "الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب" (1: 18). في ذلك تأكيد ليس فقط على أن المسيح ذو علاقة لاهوتية مباشرة بالله، بل أيضا هنالك تشديد على أنه بالرغم من تجسده ووجوده على الأرض بين البشر فإن صلته الوثيقة ولحمته الحميمة مع الله بقيت دون تغيير أو تحوير. فعند تجسده لم يكن يعبِّر عن مجرد علاقته السابقة بالله، أي أنه كان مع الله، بل أنه بقي أيضا مع الله. هذا في الواقع ما يعنيه العدد الأول من بشارة يوحنا والذي يقول دون إبهام: "في البدء كان الكلمة (أي المسيح) والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله". فالمسيح إذن كان مع الله وبقي عند تجسده في صورة بشرية "كائنًا" مع الله. ويُلقي يسوع نفسه ضوءا على تلك الحقيقة في قوله: "وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء" (3: 13). قال المصلح الشهير يوحنا كالفن بصدد هذا النص من الإنجيل: "المسيح تجسد ولكنه لم يُحصَر أو يُحجَز ولم تقل قيمته، فابن الله نزل من السماء بطريقة معجزية خارقة للطبيعة في نفس الوقت الذي فيه بقي موجودا في السماء. لقد اختار أن يولد من عذراء بطريقة عجيبة لكي يعيش على الأرض ويُعلَّق على الصليب، لكنه في الوقت ذاته لم يكُف عن أن يملأ الكون بوجوده كما كان الكون مُعَمَّرا بوجوده منذ البداية".

ثم إننا نلاحظ بأن المسيح نفسه قد كشف عن حقيقة وجوده الكلي وغير المحدود عندما قال: "حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم" (متى18: 20). وكذلك في قوله: "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" (متى28: 20). إن هذا النص الأخير ورد على لسان يسوع عندما كان مجتمعا برسله على جبل الزيتون بعد قيامته من الأموات. وهو هنا يطمئنهم ويؤكد لهم استمرارية وجوده وقوته معهم، حتى أنه أزاح الستار على أن تأثيره عليهم ومعهم لن يكون تأثير معلم أو نبي ميت ومقبور، بل هو تأثير من هو حاضر وحي أبدا. أما كونه موجودا في كل مكان فهذا يعني بأنه يبقى دائما قريبا وسهل المنال قادرا على حماية وتعزية شعبه حتى لا يصيبهم أذى أو أسَى، غير ما يراه هو ويسمح به، لأجل صالحهم ومنفعتهم. إنها لحقيقة عجيبة التي يبرزها لنا الإنجيل المقدس بأن حضور المسيح مع تلاميذه بعد قيامته من الموت كان أكثر وضوحا من وجوده الجسماني قبل موته، فبعد قيامته أصبحت قناعتهم وعلاقتهم به قوة انتصارية دافعة، بينما كان اعتبارهم له قبل موته دائم التأرجح والتشكك. وقد أشار الرسول بولس إلى حقيقة وجود المسيح المطلق في كل مكان على هذا النحو: "الذي يملأ الكل في الكل" (أفسس1: 23).

8- الخلق

مرة أخرى نجد أن الإنجيل حسب يوحنا يقدم المسيح تقديما واضحا ومختصرًا ومفيدًا: "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (1: 3) – "كُوِّن العالم به" (1: 10). كما أن ما أوحى به الروح القدس عبر كتابة الرسول بولس ليس أقل شأنا في الشهادة للمسيح الخالق: "فإنه فيه (في المسيح) خُلق الكل ما في السموات وما على الأرض، ما يُرَى وما لا يُرَى، سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل" (كولوسي1: 16 و17). أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فكتب عن الأمر مذكرا بما كان أنبياء العهد القديم قد سبق وقالوه عن المسيح القادم إلى العالم: "وأما عن الابن (فقال الله على لسان داود) كرسيك يا الله إلى دهر الدهور..." (عبرانيين1: 8). وهذا كان قد ورد في المزمور45:

6. وفي (1: 10) يتابع كاتب الرسالة إلى العبرانيين اقتباسه من أقوال الأنبياء عن المسيح: "وأنت يا رب في البدء أسست الأرض، والسموات هي عمل يديك، هي تبيد ولكن أنت تبقى..." وهذا ما ورد في مزمور102: 25. وكاتب هذه الرسالة هنا سعى ليس لمجرد تذكيرنا بما قاله العهد القديم في المسيح بل أيضا لإيقافنا على حقيقة كون العهد القديم يقول في المسيح ما لا يقال سوى في الله بالذات، فهو كان قد سبق وقال في المسيح: "حامل كل الأشياء بكلمة قدرته" (عبرانيين1: 3) وهذا ما ينطبق تماما على ما ورد في رسالة الرسول بولس الأولى إلى المؤمنين في كورنثوس: ".... ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء" (8: 6).

لقد كتب بصدد هذا الموضوع أحد كبار المفكرين المسيحيين يقول: "يخبرنا الكتاب المقدس بأن المسيح هو خالق الكون بأسره، ما هو منظور وما هو غير منظور. هذا لا يتضمن فقط ما في الكون الطبيعي والمادي من شموس ونجوم لا تُحصى، بل أيضا جميع أنواع الحياة الشخصية بما في ذلك الملائكة والبشر. الجميع مدينون له بوجودهم، وهو يشرف على كافة أرجاء الكون، حاميا بنيته من التفكك والانحلال والخراب". وتفيدنا كلمة الله بأن المسيح هو مصدر كل الأشياء، ما يُرَى وما لا يُرَى، وهو الغاية النهائية لكل الخليقة. إذن ليس المسيح هو خالق كل الأشياء فقط بل إنها جميعا خلقت لأجله هو، فهو الآخر كما هو الأول، وهو النهاية كما هو البداية.

9- السلطان والحق في مغفرة الخطايا

عندما شفى يسوع المفلوج وغفر له خطاياه تململ الكتبة متسائلين في قلوبهم: "لماذا يتكلم هذا هكذا بتجاديف. من يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله وحده" (مرقس2: 7)، لكن يسوع عرف ما في قلوبهم وبادرهم قائلا: "ولكن لكي تعلموا أن لابن الانسان سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا...." (مرقس2: 10). وأما المفلوج فقد أمره يسوع، بعد أن غفر له خطاياه، أن يحمل سريره ويذهب إلى بيته. وهكذا فإننا نرى أن المسيح ربط ما بين صلاحيته لمغفرة خطايا البشر وقدرته الإلهية على شفاء أمراضهم. وهو لم يتكلم عن مجرد السلطة على مغفرة خطية الآخرين، بل أكد أنه هو نفسه البديل

الذي يحمل عقاب الخطية عنهم. وأعلن لتلاميذه بعد قيامته من الموت "بأن يُبشَّر (يُكرَز) باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم" (لوقا24: 47). أما شهادة يوحنا المعمدان، الذي جاء ليمهد الطريق لمجيء المسيح، فقد كانت واضحة وجلية أمام الجميع: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا1: 29)، والرسول بطرس بشر الأمم قائلا: "له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا..." (أعمال الرسل10: 43)، وكتب بولس الرسول بدوره: ".... لنا فيه الفداء، بدمه غفران الخطايا.." (كولوسي1: 14). وكتب الرسول يوحنا في رسالته الأولى: "ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية" (1: 7). ليسوع المسيح إذن المقدرة على مغفرة خطايا الآخرين لأنه هو نفسه كان مزمعا أن يدفع ثمن ذلك الفداء الثمين.

10- مؤسس الخلاص

لدينا مجموعة نصوص في الكتاب المقدس تعلّمنا بأن المسيح هو مؤسس ومنبع الخلاص، وهذه النصوص وضعت بقوة وسلطان لتدعو الناس إلى الإيمان الحق بالإله الحقيقي الوحيد، وغاية الإيمان الحياة الأبدية. وورد في الإنجيل حسب يوحنا3: 36 ما يلي: "الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله". هذه شهادة يوحنا للمسيح أنه في الإيمان الخلاص وفي الخلاص الحياة الأبدية، كما أجاب بولس وسيلا على رغبة سجانهما المتلهفة لمعرفة الحق: "آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك" (أعمال16: 31). أما المسيح نفسه فكلماته لم تكن أقل وضوحا بهذا الشأن إذ قال: "أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي" (يوحنا14: 1).

يؤكد يوحنا أيضا أن المؤمنين يرثون الحياة الأبدية، ولم يكن هذا ليحدث لولا محبة الله الآب. "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية... الذي يؤمن به لا يُدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد" (يوحنا3: 16و 18). ويخبرنا يوحنا أيضا بلسان الرب يسوع المسيح عن السبب الجوهري للإيمان. فما هي المحبة وما هو الخلاص والحياة الأبدية

إن لم يؤكد لنا يسوع أنه حي إلى الأبد؟ فالإيمان به هو الأمل الوحيد للانتصار على الموت، حيث يصرح لنا السيد بهذا البيان الجبار كما ورد في يوحنا11: 25 و26 وهو كما يلي: "أنا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حيا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد..."

إذن فالإيمان بالمسيح هو مرتبط تماما بالإيمان بالله، وكلمة الله لا تفرق بينهما، ففي الإنجيل حسب يوحنا12: 44 يأتي قول المسيح: "الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني"، وفي6: 28 – 40 من نفس الإنجيل المقدس ترد هذه العبارات: "فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟ أجاب يسوع وقال لهم: "هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله... أنا هو خبز الحياة، من يُقبل إليَّ فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدا.... لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير." كذلك ورد في يوحنا 15: 5و6 على لسان يسوع ما يلي: "أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذي يثبت فيَّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير، لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئا. إن كان أحد لا يثبت فيَّ يُطرح خارجا كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق". وأيضا في10: 9 من نفس الإنجيل يقول: "أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى". وفي10: 27و 28 يقول: "خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي". أما الصلاة الشفاعية المدوَّنة في يوحنا17: 3 ففيها قال السيد: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته".

راجع أيضا هذه الآيات ذات السلطة الفائقة التي وردت في الإنجيل حسب متى:

- **"كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبي الذي في السماوات" (10: 32).**
- **"وليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يُعلن له" (11: 27).**

- "تعالوا إليَّ يا جميع المُتعَبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (11: 28).

ومن يوحنا8: 24 التالي: "إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم".
ومن أعمال الرسل4: 12، "وليس بأحد غيره الخلاص، لأن ليس اسم آخر قد أعطِي بين الناس به ينبغي أن نَخلُص".
ومن سفر الرؤيا2: 10، "كن أمينا إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة".

إن اسم "يسوع" هو من مصدر إلهي وهو يعادل "يشوع" بالعبرية ومعناه "يهوه المخلص" أو "الله هو المخلص"؛ فقبل أن يأتي المسيح إلى عالم البشر وصفه الملاك الذي بشَّر به هكذا: "تدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم" (متى1: 21)، حتى أن يوحنا الرسول طرح بوضوح القصد الحقيقي من كتابته في قوله: "وأما هذه (أي الأمور المختصة بيسوع) فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه" (يوحنا20: 31).

إن هذه النصوص تحمل في طياتها أعظم وأثمن وأكرم التعهدات. إنها لا تدع مجالا للشك في أن الإيمان بالمسيح أمر ضروري للخلاص، وأنه بمعزل عنه لا يوجد أمل في الخلاص. إنه من المستحيل لأيٍّ كان من كان، الإتيان بتصريحات ساطعة وباهرة كالتي صرح بها الرب يسوع المسيح بخصوص شخصيته وتأثيره على حياة الآخرين. لقد قال أحد عظماء اللاهوتيين بهذا الشأن ما يلي: "من الواضح أن الله بالذات في عدم محدوديته لا يسعه أن يعد ولا أن يقدم شيئا أعظم قدرا ولا أسمى منزلة مما يهب المسيح لشعبه، فهُم موجَّهون للتطلع إليه كمصدر كل بركة وواهب كل عطية صالحة وخالصة الكمال. إنها لأروع الصلوات وأكثرها تعبيرا تلك التي ختم بها الوحي الإلهي الرسالة إلى مؤمني مقاطعة غلاطية والتي تقول: "نعمة ربنا يسوع المسيح مع روحكم أيها الأخوة آمين".

11- موضوع الصلاة والعبادة

نقرأ بوضوح في الإنجيل عن مناسبات عديدة سجد فيها البشر للمسيح وعبدوه؛ فالبشير متى يذكر عن المجوس (حكماء المشرق) عندما أرشدهم الله إلى مكان ولادة مخلص البشر في بيت لحم بفلسطين، أنهم: "خرّوا وسجدوا له" وذلك بمجرد رؤيتهم للطفل يسوع (متى2: 11). وعندما مشى المسيح على الماء فالذين كانوا في السفينة جاءوا وسجدوا له قائلين: "بالحقيقة أنت ابن الله" (متى14: 33)، كما سجدت له أيضا المرأة الكنعانية قائلة: "يا سيد أعني" (متى15: 25)، وكذلك تلاميذه عندما ظهر لهم في الجليل بعد قيامته مكتوب: "فلما رأوه سجدوا له" (متى28: 17).

ويذكر البشير لوقا عن صعود المسيح إلى السماء أنه "انفرد عنهم وأصعد إلى السماء فسجدوا له" (24: 51و 52).

أما يوحنا فيخبرنا عن سجود الأعمى للمسيح بعد أن أعاد إليه بصره وأمره بالاغتسال في بركة سلوام (9: 38)، وأيضا عن تلميذه توما عند رؤيته لسيده بعد قيامته من الموت إذ سجد له قائلا: "ربي وإلهي" (20: 28)، وهو هنا لم يكتف بالسجود له بل أشار إليه كإلهه وربه الذي يتعبد له. والجدير بالذكر أن المسيح لم يوبخه على ما تكلم به، بل أن هؤلاء الناس من تلاميذ وأناس عاديين ومن كانوا بحاجة إلى شفاء من مرض أو علة جسدية، جميعهم قد تساووا في السجود له معترفين بذلك بألوهيته؛ ففي كافة الظروف والمناسبات لم يعترض يسوع المسيح بتاتا على سجود البشر له وعبادتهم إياه، بل تقبل تلك المواقف البشرية كأمور ضرورية ولائقة به.

علاوة على ذلك فقد أعطى يسوع شهادات مهمة جدا تتعلق بألوهيته وباستحقاقه للعبادة، وإذ أراد من المؤمنين به أن يضعوا ثقتهم به ويتكلوا عليه اتكالا كاملا في كل أمور حياتهم، جاءهم بهذا التأكيد قائلا: "حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم" (متى18: 20)، وكذلك قبل صعوده إلى السماء قال لهم: "ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر".

إن تصريحات كهذه لا يمكن أخذها إلا من منطلق رغبة المسيح في الكشف عن ألوهيته؛ فمَن غَيرُ الله يستطيع أن يكون في كل مكان؟ من هنا كانت محتويات أسفار العهد الجديد ومواقف الكنيسة المسيحية الرسولية الأولى التي اتفقت في إصرارها على تقديم الإكرام والعبادة – المختصَّيْن بالله وحده – ليسوع المسيح: "لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب" (يوحنا5: 23). والمؤمنون عبَّروا عن ذلك، ليس أثناء ظروف حياتهم العادية فحسب، بل حتى تحت أشد ويلات الاضطهاد، كما دعا في صلاته القديس اسطفانوس عندما استشهد لأجل مناداته بإنجيل المسيح: "أيها الرب يسوع اقبل روحي" (أعمال الرسل7: 59).

إن السجود والتعبد للمسيح هما من ركائز المناداة بالإنجيل ومن المتطلبات الرئيسية للذين ينتمون للمسيح ويتمتعون بخلاصه. من هنا طُرح في الإنجيل أهم الأسئلة إطلاقا: "ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟" وقد وردت عليه ردود كثيرة جميعها تفيد بضرورة الإيمان بالمسيح والتعبد له. وفيما يلي نسرد بعضا منها:

- **"آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص" (أعمال الرسل16: 31).**
- **"إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت" (رومية10: 9).**
- **"لأن كل من يدعو باسم الرب يسوع يخلص" (رومية 10: 13).**
- **"لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة.... ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب" (فيلبي2: 10و 11).**
- **"لتسجد له كل ملائكة الله" (عبرانيين1: 6).**

ثم إن هناك التصريحات الرسولية التي يصعب حصرها والتي سجلها الوحي الإلهي، وكلها تؤكد على ربوبية المسيح وعلى كونه جديرا بأن يُعبَد، نورد منها على سبيل المثال ما يلي:

- **"ربنا ومخلصنا يسوع المسيح" (2بطرس3: 18).**

- "مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة" .. "للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين" (رؤيا5: 12و 13).

لقد شدد الرسول بولس على عقيدة الربوبية في بداية كل رسالة كتبها وهو دائما يذكر الاسمين "ابن الله" و"الرب يسوع المسيح" بطريقة عفوية على أساس كونهما متساويين في إشارتهما لألوهية المسيح، فإن الرب يسوع المسيح ابن الله هو الذي يهب النعمة والسلام. ومع ذلك فإن بولس لم يدع مجالا للشك في أنه كان متمسكا بوحدانية الله، فهو يقول: "ليس إله آخر إلا واحدًا"، (1كورنثوس8: 4). هذا هو الإله الوحيد الذي قدم بركته للمؤمنين بواسطة ما يعرف بالبركة الرسولية ألا وهي: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم. آمين" (2كورنثوس13: 14). وما هذه سوى صلاة موجهة إلى المسيح لأجل نعمته وإلى الآب لأجل محبته وإلى الروح القدس لأجل شركته المقدسة.

هذه الحقائق التي يضعها الوحي الإلهي بين أيدينا لا يوجد تفسير مفهوم لها سوى ذلك الذي تمسكت به الكنيسة المسيحية عبر العصور، أي أن الله هو في ثلاثة أقانيم هم جميعا واحد في الجوهر ومتساوون في القدرة والمجد.

لكننا إذا قارنا تلك التعابير الإنجيلية – التي تنسب الصلاة والعبادة للمسيح – مع الأخرى التي تُبرز وحدة الله وجلاله والمجد الذي ينفرد به دون سواه، لا يكون أمامنا مفر من التسليم بأن الوحي الإلهي إنما يكشف عن أن العبادة هي لإله واحد، وأن المسيح هو في نفس الوقت موضع عبادة وثقة المؤمنين. فكلمة الله تقول: "التفتوا إليَّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض، لأني أنا الله وليس آخر" (إشعياء45: 22)، ثم تقول: "..... ليس إله آخر إلا واحدًا" (1كورنثوس8: 4)، وجاء أيضا في نبوة إرميا17: 5 "ملعون الرجل الذي يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه". إضافة إلى ذلك هناك تصريحات الوحي الإلهي الكثيرة التي تدين الوثنية والتعبد لغير الله. من هنا

كان الأمر بسيط للغاية، فهي واحدة من اثنين: إما أن ألوهية المسيح التي يعلّمها الكتاب المقدس هي حق، وإما أن الكتاب المقدس هو مضلل وليس من الله.

إن كلمة الله تضع اعتراف الإنسان بألوهية المسيح والارتكان له والاتكال عليه، اتكالا مطلقا كالمخلص الوحيد، على مرتبة عالية جدا من الأهمية، وهذا الاعتراف اعتبر دليلا على صدق انتماء الفرد لله.

12- ديان كل البشر

إن موضوع الدينونة النهائية يشغل مكانا مهما ضمن تعليم يسوع المسيح؛ فهو لم يشدد على أن دينونة البشر واقعة فحسب، بل أكد على أن المسيح هو بالذات الذي سيقوم بدور الديان، فهو الذي سيصدر الأحكام النهائية على كل الناس وهو الذي يقرر المصير الأبدي لكل منهم. لقد قال: "لأن الآب لا يدين أحدا بل قد أعطى كل الدينونة للابن لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب.. إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون... فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة" (يوحنا5: 22 – 29).

ربما يكون الفصل الخامس والعشرون من الإنجيل حسب متى أهم نص في الوحي الإلهي فيما يخص التعليم عن نهاية العالم، وهو يوجه أنظارنا إلى كون المسيح الملك الديان، فيقول: "متى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده، ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميِّز بعضهم من بعض كما يميِّز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره، ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم.... ثم يقول أيضا للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته.. فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية" (عدد31 – 46).

لقد أكد الرب يسوع المسيح على تلك الحقيقة، بكونه الرب الديان الذي بيده مصير البشر، منذ بداية خدمته الجمهورية؛ فعندما ألقى عظته الرسمية الافتتاحية لتلك الخدمة (المعروفة بالموعظة على الجبل) فإنه قال لجماهير مستمعيه: "ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذ أصرِّح لهم إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (متى7: 21 – 23).

وقد أفادنا رسل المسيح أيضا بالحقيقة عينها، فالرسول بطرس قال عن يسوع: "هذا هو المعيَّن من الله ديَّانًا للأحياء والأموات" (أعمال الرسل10: 42). والرسول بولس قال: "لأنه لابد أننا جميعا نُظهَر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرا كان أم شرا" (2كورنثوس5: 10). وهذه لم تكن قناعات الرسل فحسب بل إن الكنيسة المسيحية تمسكت بها مضيفة إياها إلى لائحة معتقداتها الأساسية، إذ قد ضمَّنت منذ البداية أن المسيح آت لدينونة جميع البشر.

خلاصة القول إنه من الواضح أن الرب يسوع عبر مختلف نشاطاته لم يتردد في أن ينسب إلى نفسه أسمى امتيازات الألوهية؛ فهو لم يقم بعمل ذلك فحسب بل إنه رحب بما نسبه له الآخرون من ميزات الربوبية وألقابها الجوهرية مثل: القداسة، والأزلية، والسلطان على مغفرة الخطايا، والقدرة على افتداء حياة الناس، والحق في أن يُصلَّى إليه ويُعْبَد، وسلطان الحكم النهائي على مصير البشر.

رابعا: وجود المسيح الأزلي قبل التجسد

في سلسلة من الإعلانات المتتابعة والهامة جدا يبلغنا السيد أمورا جوهرية عن نفسه. لقد حرص كل الحرص على أن يعرفنا بأن وجوده لم يبدأ عند ولادته في بلدة بيت لحم، إنما هو "أتى" أو "نزل" من السماء إلى الأرض، وأنه "أرسل من قِبَل الآب"؛ فمن الواضح أنه كان موجودا قبل ذلك. تلك الإعلانات التي نحن بصددها لا تمثل مجرد

شهادة فريدة لمهمته الإلهية على الأرض، بل إنها تشهد أيضا لأصله السماوي. إنها تقدم لنا المسيح ليس فقط كأعظم بني البشر بل كمن سبق وجوده عملية تجسده. إن إشارات أزليته وسرمديته هي واضحة، وتؤكد أنه لم يكن لوجوده بداية ولن تكون له نهاية. إنه هو البداية والنهاية. إن تصريحات الرب يسوع هذه نبعت عن وعيه وإدراكه لوجوده الأزلي. هذه القناعة عنده لم تكن في حاجة لأي دعم يتعدى ذلك القادم "من السماء" أو "من الآب". أما تلك الحقيقة فيدعمها الاستعمال الدائم للقب "ابن الإنسان" ضمن تلك الإعلانات، ذلك اللقب الذي استنتجنا منه سابقا، بأنه يشير فيما يشير إلى وجود المسيح السابق للتجسد، وهكذا أصله البشري والأرضي. وهذا ما يفسر لنا كلام المسيح للبشر عن الأمور الروحية السامية طالبا إليهم أن يكيِّفوا حياتهم بمقتضى تعاليمه الهامة. وهذه بعض النصوص الكتابية التي تدعم ما أتينا على ذكره:

- **لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكَمِّل (متى5: 17).**
- **لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض. ما جئت لألقي سلاما بل سيفًا، فإني جئت لأفرِّق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته (متى 10: 34- 36). ليس المقصود هنا أن يوجد الخصام بحد ذاته، بل أن حياة الإيمان الجديدة تتسبب في عداء ومعارضة لأصحابها لدرجة أنهم يصبحون منبوذين من قِبَل أهلهم ومجتمعهم غير المؤمن.**
- **لنذهب إلى القرى المجاورة لأبشر هناك أيضا، لأني لهذا خرجت (مرقس1: 38).**
- **لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة (مرقس2: 17).**
- **لأن ابن الإنسان أيضا لم يأت ليُخدم بل ليَخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين (مرقس10: 45).**
- **لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلِّص ما قد هلك (لوقا19: 10).**

ومن بشارة يوحنا النصوص الكتابية التالية:

- **ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء (3: 13).**
- **الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع والذي من الأرض هو أرضيٌّ ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع – وما رآه وسمعه به يشهد.. لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله (3: 31 – 34).**
- **فإن رأيتم ابن الإنسان صاعدا إلى حيث كان أولا (6: 62).**
- **لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب.... لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني (8: 14، 16).**
- **أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من هذا العالم (8: 23).**
- **خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم وأيضا أترك العالم وأذهب إلى الآب (16: 28).**

وتجدر الملاحظة بأن يسوع المسيح لم يصرِّح فقط عن وجوده قبل مجيئه إلى العالم، بل أيضا بأنه كان موجودا منذ الأزل. هذا ما نراه في النصوص الإنجيلية التالية حسب يوحنا:

- **قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن (8: 58).**
- **والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم (17: 5).**
- **.....لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم... (17: 24).**

هنا نجد دلالة قاطعة بأن علة وجوده هي من ذاته وليست من مصدر خارجي. هذا ما يذكِّرنا بما ورد في التوراة في سفر الخروج3: 14 "أهيه الذي أهيه" وهو تعبير يشير إلى عظمة الله وجلاله وليس فقط إلى وجوده. "أهيه" أو "يهوه" هو الاسم العبري لله والمترجم في العربية بـ"الرب". والترجمة الحرفية للتعبير "أهيه الذي أهيه" هي: "الكائن الذي هو كائن". وهو الاسم الذي يشدِّد على كون الله هو وحده

الكائن الأزلي بمطلق ما في ذلك من تعبير؛ فهو وحده الذي يتصرف بحرِّية واستقلالية مطلقتين. هذا ما أراد الله أن يعرِّف نفسه به لعبده موسى. ويسوع هنا ينسب لنفسه ذات الاسم "الكائن الذي هو كائن"، أي الله الكائن بذاته منذ الأزل بحرِّية واستقلالية مطلقتين. نجد نفس المعاني فيما ينسبه سفر الرؤيا للمسيح حيث يتكلم يوحنا الرائي على لسان يسوع فيقول: "أنا الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر" (سفر الرؤيا22: 13).

لم يكشف يسوع إذن عن وجوده السابق للتجسد فحسب، بل إنه أيضا كشف عن أن ذلك الوجود هو أزلي. هذا يطابق تماما بيانات الآخرين عنه في الإنجيل (العهد الجديد)، فيوحنا المعمدان قال عن المسيح: "يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي" (يوحنا1: 30). بالطبع لم يكن المقصود هنا أن يسوع وُلِد قبل يوحنا المعمدان؛ لأن يوحنا كان قد وُلِد قبل يسوع ببضعة أشهر، ولكن المقصود بالتعبير "صار قدامي" الإشارة إلى رتبة المسيح الأكثر سموا وارتفاعا عن رتبة يوحنا. هذا ما قصد به تماما استعمال تعبير "الكلمة" في إشارة الإنجيل المبدئية إلى المسيح كما ذكرها البشير يوحنا. فهو ذو الكيان السابق المعادل للآب من جهة كل شيء بما في ذلك عملية الخلق. يسوع المسيح هو الأساس الذي "صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الآب مملوءا نعمة وحقا" (يوحنا1: 14).

أما بولس الرسول فيعطينا ما يمثل قمة الحق الإلهي المكشوف للبشر فيقول: "فيه (أي في المسيح) خُلِق الكل، ما في السماوات وما على الأرض، ما يُرَى وما لا يُرَى سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خُلِق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل" (كولوسي1: 16و 17). وكتب بولس أيضا إلى تلميذه تيموثاوس عن المسيح قائلا: "الله ظهر في الجسد" (1تيموثاوس3: 16).

أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فيقول: "يسوع المسيح هو هو أمسا واليوم وإلى الأبد" (عبرانيين13: 8). فالمسيح بقي "هو هو" دون تغيير رغم كل تغيير طرأ على

غيره. "هو هو" في هذا الجيل الحاضر كما في الماضي القريب أو البعيد. "هو هو" في المستقبل أيضا. في المسيح الثابت هذا، الذي لا يعتريه تغيير ولا ظل دوران، يجد المؤمن سنده وملجأه الأبدي الأكيد.

هذه الحقائق لا تقتصر على كتابات العهد الجديد (الإنجيل)؛ فهناك نبوءات كتب الأنبياء في العهد القديم بخصوص المسيح المنتظر، والتي سبقت مجيئه بمئات السنين. تلك النبوءات لم تتحدث عن مجرد ولادته المتوقعة كإنسان كامل، بل إنها أيضا أكدت حقيقة وجوده قبل مجيئه إلى الأرض. كما أنها أظهرت أن وجوده السابق يرجع إلى الأزل قبل أن يوجد الزمن نفسه. هذا ما وضحه النبي ميخا الذي كتب سفره قبل مجيء المسيح بحوالي سبعمائة عامٍ؛ ففي معرض نبوته عن مكان مولد المسيح يقول: "أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل" (ميخا5: 2). والنبي إشعياء، الذي عاش في نفس الفترة التي عاش فيها النبي ميخا، تحدث واصفا ذلك المسيا (المسيح المنتظر) فقال إن اسمه يكون "عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام" (إشعياء9: 6).

يبرز يسوع المسيح عبر كل التاريخ البشري كالمنتظر مجيئه قبل مئات السنين. لم تكن هناك نبوءات ولا توقعات لغيره من الشخصيات التاريخية، لأنه لم يكن كالإسكندر الكبير أو نابليون أو جورج واشنطن أو غيرهم من القادة الذين لم ينتظرهم أحد في أوقات وأماكن ظهورهم. وحتى قبل وجود الأنبياء أنفسهم أعطى الله الوعد بمجيئه، فبمجرد أن سقط أبوانا الأولان آدم وحواء في خطية العصيان وكسرا وصية الله، جاء الوعد بقدوم المخلص؛ فقد أخبر الله إبليس المتمثل بالحية الخادعة بأن نسل حواء "هو يسحق رأسك" (تكوين3: 15). وهذا ما تحقق في عمل المسيح الكفاري وانتصاره التاريخي الساحق على إبليس. ولكن على مر الزمن تتالت المواعيد والإعلانات عبر أنبياء الله بمجيء المسيا والمخلص المنتظر، حتى أنه في عصر ولادة المسيح من مريم العذراء ومجيئه إلى العالم، كان هناك شعور وتوقع عام بقرب مجيئه، حتى أن أسلوب وموضع ولادته كانا واضحين لمنتظري تحقيق مواعيد الله.

وهكذا فإن يسوع المسيح كان يُقدَّم دائما كمن كان موجودا قبل أن يأتي إلى عالم البشر؛ فقد وُصِف في الأسفار المقدسة كمن "نزل" من السماء إلى الأرض، وكمن شارك الآب في مجده منذ الأزل، بل وكمن "خرج من عند الآب" (يوحنا16: 28)، أي كمن هو – في أوثق وأهم المعاني – واحد في الله. كلماته ذاتها لا تترك مجالا للشك في أنه يعتبر نفسه زائرا للأرض، من عالم أسمى، وبأنه جاء في مهمة سماوية خاصة على الأرض لإنقاذ وفداء بني البشر. إذن وباختصار وتحديد واضح جاء المسيح لخلاص قوم ضالين وهالكين.

جَليٌّ إذن أن موضوع وجود المسيح الأزلي قبل التجسد له ارتباط حيوي للغاية بأي مفهوم لائق لشخصه. هذا ما عبَّر عنه أحد كبار المفكرين واللاهوتيين عندما قال: "في دراستنا ليسوع المسيح، من المهم جدا أن نتفهم حياته على ضوء وجوده السابق لقدومه لعالم البشر، فنضع دائما نصب أعيننا أن حقيقة تجسده لم تكن مجرد ولادة رجل عظيم، لأن تجسد المسيح يعني دخول الله إلى حيز ومحيط الوجود البشري. وهكذا نكون على إدراك مستمر بأنه في يسوع المسيح نلتقي وجها لوجه مع الإله المتجسد. ومن جهة أخرى فإن وعينا بهذا الأمر من شأنه أن يولِّد فينا تقديرا لائقا للخدمة التي جاء للقيام بها من أجلنا. إنه من باب المستحيلات أن يتفق مفهومنا للمسيح مع عظمة ما قام به، ما لم ندرك بأن ابن الإنسان قد جاء ليس لكي يُخدَم بل ليَخدُم وليبذُل نفسه فدية عن كثيرين".

خامسا: معجزات المسيح

معجزات المسيح هي برهان قاطع على ألوهيته. إن تعريف المعجزة حسب مفهوم الوحي الإلهي هي عمل أو حدث علني أجري بقوة الله المباشرة بقصد إثبات صحة رسالة الرسول. لكن المعجزات التي قام بها المسيح تختلف، من حيث طبيعتها ومداها وأسلوبها، عن المعجزات التي جرت على أيدي الأنبياء والرسل، فهو بخلاف الأنبياء والرسل، حقق ما حققه من أعمال معجزية بقوته هو لا بواسطة قوة خارجة عنه. عندما

تحققت المعجزات على أيدي الرسل والأنبياء، أصروا دائما على نكران كون ما عملوه راجعا إلى قوتهم الشخصية. مثلا عندما انشطرت مياه البحر الأحمر وعبر شعب الله على اليابسة في قلب المياه لم يتردد كليم الله موسى في أن ينسب العمل لله (خروج14: 13). وهذا أيضا كان موقف يشوع بن نون (يشوع3: 5) وإيليا (الملوك الأول 18: 36) والكثيرين من رجالات الله الذين عملوا العجائب. وهذا ينطبق أيضا على أيام العهد الجديد، فعندما شفى الرسولان بطرس ويوحنا الرجل الأعرج الواقف على باب الهيكل، كان ردُّهما على تعجب الجموع التي شاهدت المعجزة هكذا: "ما بالكم تتعجبون من هذا؟ ولماذا تشخصون إلينا كأننا بقوَّتنا أو تَقوانا قد جعلنا هذا يمشي؟" (أعمال الرسل3: 12). وعندما شفى بولس مريضًا في مقاطعة لسترة وشرع الناس في تقديم ذبائحهم له ولزميله برنابا، سارع برفض ذلك وبإعطاء المجد لله قائلا: "نحن أيضا بشر تحت آلام مثلكم" (أعمال الرسل14: 15). لكن عندما شفى المسيح المرضى وأخرج الأرواح النجسة أو أقام الموتى أو أوقف هيجان البحر، فإنه قام بكل ذلك بقوته غير المحدودة. وقد كشف عن تلك الحقيقة بدون تردد قائلا: "..... الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي....." (يوحنا10: 25). "إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه" (يوحنا10: 37و 38). لقد جاء تلميذا يوحنا المعمدان ليسألاه عما إذا كان هو المسيا المنتظر أم لا، فأجابهم المسيح قائلا: ".... اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران، "العُمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يُطهَّرون والصُّم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يُبَشَّرون..." (متى11: 4و 5). الله هو الذي أقر ونظم قوانين الطبيعة وهو وحده يقدر أن يغيرها أو يعطلها كما يشاء. لقد أبرز المسيح قوته وعظمته وجلاله في كل مرة أجرى فيها معجزة، موردا بذلك برهانا مرئيا على ألوهيته.

إن عدد المعجزات التي قام بها المسيح كان كبيرا جدا، وقد سجل الإنجيل حوالي أربعين منها، كانت بمثابة أمثلة لإبراز قوة المسيح الشفائية أو مقدرته على إقامة

الموتى والتسلط على قوى الطبيعة. وهناك إشارات في الإنجيل إلى أن الكثير من تلك المعجزات لم تُسجَّل (راجع متى4: 23و 24 ويوحنا20: 30).

سادسا: أهمية الاعتقاد بألوهية المسيح

يعلّم الكتاب المقدس ألوهية المسيح بجلاء ووضوح، وهذا الأمر مفروغ منه بالنسبة لكل من يؤمن بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله. لا يوجد مجال للجدل في أن يسوع المسيح عرَّف نفسه في الإنجيل على أنه الله المتجسد. ومن المؤكد بأن البشر الذين اختارهم الله لتدوين سجلات العهد الجديد، كانوا يتمسكون بهذه الحقيقة الهامة والسامية، ولم يترددوا في عبادة المسيح كالله. ثم أن الكنيسة المسيحية عبر العصور بكافة طوائفها تمسكت بألوهية المسيح الذي تتعبد له. هذا واضح من كافة السجلات العقائدية، من قوانين الإيمان إلى الترانيم الروحية والكتابات التعبدية؛ ففي كتابات وسجلات كل جيل وقرن نجد أن التمسك بألوهية المسيح هو عقيدة كل من قرأوا سجلات الوحي الإلهي وتبنَّوا تعاليمها.

إن إنكار ألوهية المسيح، واعتباره مجرد معلّم أو نبي عظيم، يتناقض مع مضمون الوحي الإلهي؛ فإنكار تعاليم الوحي الإلهي يُبعد الإنسان عن منبع الحكمة والحق، ويدفعه إلى تفاسير عقلانية سطحية لأمور لا يمكن فهمها إلا بالحكمة الروحية التي أوحى بها الله. إن الحياة كل الحياة تكمن في هذا الإدراك الروحي والاعتراف المُخْلِص بألوهية الفادي. هذه هي الحياة الأبدية أن يؤمن البشر بالمسيح المخلِّص. إن عدم وجود هذا الإيمان الكتابي بالمسيح يقود إلى موت روحي أبدي. المسيح هو الحياة ولذلك فإن "الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية، والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله" (يوحنا3: 36).

إن التمسك بألوهية المسيح، حسب تعليم الكتاب المقدس، هو أمر ضروري للغاية بحيث يعتبر المقياس الأساسي للتمييز بين الحق والباطل، وهذا ما يوجِّه انتباهنا إليه الرسول يوحنا في قوله: "أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح. هل هي

من الله؟ لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم... كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي والآن هو في العالم" (رسالة يوحنا الأولى4: 1 – 3).

إن الرسول بولس يشدد على العقيدة الكتابية الصحيحة بقوله: "ليس أحد وهو يتكلم بروح الله يقول يسوع أناثيما (ملعونا) وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس" (1كورنثوس12: 3). إذن يعرفنا بولس بأن الذي استنار من الروح القدس يعترف بالمسيح يسوع كرب ومخلّص، وهذا يعني أنه يؤمن بألوهية المسيح؛ فالفرد الذي يتأمل في يسوع بمجرد عينيه، غير المستنيرتين من الروح القدس، لا يرى فيه سوى إنسانيته، وقد يصل إلى درجة الإقرار بأن المسيح كان رجلا عظيما وبأن مبادئه سامية للغاية. هذا كل ما يمكن لإنسان غير مستنير أن يرى في المسيح، لكن ذلك غير كاف لأنه نصف الحقيقة. وحالما يجدد الروح القدس الإنسان وينير بصيرته الروحية فإذ ذاك يرى نفسه خاطئا أمام الله ومحكوما عليه بالقصاص، ويرى في نفس الوقت – بعين الإيمان الجديدة – أن يسوع المسيح هو حقا ابن الله المتجسد، الذي صُلِب لأجل خطاياه وقام من الأموات، وهو جالس الآن عن يمين الآب بكل سلطان وعظمة. لقد كتب أحد كبار لاهوتيي القرن التاسع عشر عن هذه الحقيقة قائلا: "كل من يؤمن بأن المسيح هو ابن الله – أي كل من يؤمن بأن يسوع الناصري هو الله الذي كشف عن نفسه في الجسد – ويحبه ويطيعه، فإن هذا الإنسان قد وُلِد من الله. أما الذي ينكر هذا الحق فهو ليس إلا عدوًّا للمسيح بالذات. من ينكر الابن ينكر الآب أيضا؛ فنكران الواحد هو نكران للآخر". وهذا ينطبق تماما على ما أورده الوحي الإلهي على لسان الرسول بولس عندما كتب قائلا: "... إن كان إنجيلنا مكتوما فإنما هو مكتوم في الهالكين، الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح الذي هو صورة الله" (2كورنثوس4: 3و 4). وبناء على هذا التعليم فإن الهالكين هم الذين لا يرون ولا يؤمنون بأن يسوع هو الله المتجسد، لأن معرفة المسيح والإيمان به واضحة وجلية. ففي العيش مع مجد وبركة المسيح الهناء

والحيوية. من المحال بل ومن غير المعقول أن تكون الحياة هنيئة بمعزل عن مصدرها وبارئها؛ فالذي يؤمن بالمسيح هو الذي يحيا فيه، لهذا فإن حياتنا مستترة مع المسيح في الله وبذلك أصبحنا كاملين فيه ولا ينقصنا شيء؛ فإننا بواسطة الإيمان به فقط نحصل على الفرح الحقيقي بسبب محبته وافتدائه لنا. ويطرح لنا الرسول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس 16: 22 أهمية هذه المحبة من جهتنا فيقول: "إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن أناثيما (أي مرذولا وخذولا)، فلا شك بأن الكتاب المقدس يشدِّد على أن نكران ألوهية المسيح – ورفض قبوله وعدم محبته والثقة به وعبادته وخدمته كإله – إنما تشكل الأساس لدينونة الله الحاسمة لكل الذين يسمعون ويرفضون الإنجيل.

إن ألوهية المسيح هي واقع أرسخ من أن يُرفض، وهي حق أخطر من أن يُنْبَذ بدون عقاب؛ لأن الذين يؤمنون بذلك يخلصون، والذين ليس لهم عيون ليبصروا ويؤمنوا، فهم بعدم إيمانهم قد أهلكوا أنفسهم. هذا ما يقوله الوحي الإلهي الطاهر بالحرف الواحد. "الذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد"، "الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية، والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله" (يوحنا3: 18و 36).

الفصل الثاني
إنسانية المسيح (ناسوته)

أولا: دلائل بشريَّة المسيح

في الجواب على السؤال "من هو فادي مختاري الله؟" يقول كتاب أصول الإيمان: "إن الفادي الوحيد لمختاري الله هو الرب يسوع المسيح الذي وهو منذ الأزل ابن الله صار إنسانا، وهكذا كان ولا يزال إلها وإنسانا معا، ذا طبيعتين متميزتين وأقنوم واحد إلى الأبد". وفي الجواب على السؤال "كيف صار المسيح إنسانا وهو ابن الله؟" يجيب: "إن المسيح ابن الله صار إنسانا باتخاذه لنفسه جسدًا حقيقيا ونفسا ناطقة، إذ حُبل به بقوة الروح القدس في رحم مريم العذراء، ووُلِد منها بدون خطية".

رأينا في الفصل السابق أن المسيح يتمتع بطبيعة إلهية وله كل صفات وألقاب الله، ومع هذا كلّه علينا ألا ننسى، أنه وهو على الأرض قد تمتع بطبيعة بشرية حقيقية وكاملة؛ فقد كان عظما من عظامنا ولحما من لحمنا. عاش أثناء وجوده على الأرض كأي إنسان آخر عرضة لكل الصعوبات والتجارب والآلام. فمن جهة ناسوته أو طبيعته البشرية، هو واحد منا تماما، كما كان متحدا مع الله من جهة لاهوته أو طبيعته الإلهية. فعندما كان طفلا كانت له مشاعر ومزايا الأطفال، وعند نموه "تقدَّم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس".

من فم أمه تعلَّم أولا أمور الله الطاهرة وعند ركبتيها كان يركع مرارا كثيرة ليصلي. لقد نما في بلدة الناصرة التي لم تكن لها مكانة معتبرة ولا شهرة ذائعة.

أما يوسف ومريم فقد احتفظا بتلك العجائب التي رافقت طفولة يسوع، ومن المرجح أن أمه لم تخبر بها إلا الفريق المقرَّب من تلاميذه بعد قيامة المسيح. أما رفقاء وأقرباء معاصرو المسيح فلم يلاحظوا، على الأغلب، أنه خلال نموه كان يتمتع بمزايا فائقة للطبيعة. ومن المرجح أن يوسف – الذي كان خطيب أمه عندما كانت حبلى به – كان قد مات قبل أن يشرع يسوع في خدمته الجهارية. وبما أن يسوع كان الابن البكر فإن مسئولية إعالة أمه وبقية أسرته وقعت على عاتقه، وكنجار كان يعرف معنى الكد اليومي. ومع أن الكتاب المقدس يسمِّي المسيح "آدم الثاني" فإنه لم يأت إلى عالم البشر كإنسان بالغ، بل مر بكل مراحل الاختبارات البشرية، من طفولته حتى رجولته. لقد عاش يسوع المسيح حياة بشرية في كل لحظة وساعة ويوم من وجوده في عالم البشر.

إن حقيقة كون يسوع المسيح قد تمتع بطبيعة بشرية أصيلة، وعاش حياة بشرية اعتيادية، هي بالغة الوضوح والبيان عبر صفحات الكتاب المقدس. لقد تضمن أول مواعيد الوحي الإلهي بمجيء المخلص – كما يذكره سفر التكوين3: 15 – حقيقة ناسوت المسيح للتأكيد على أنه سيكون نسل المرأة الذي يسحق رأس الحية. هناك إذن في مطلع سجلات الوحي الإلهي دلالة قاطعة على أن الله قصد أن يستخدم نائبا بشريا للقيام بمهمة الفداء. أما الوعد المُعطى لإبراهيم فيدل أيضا على أن العهد الأبدي، المقام معه من قِبَل الله، سيتحقق في نسله (تكوين17: 19 و 22: 18). ذلك هو الموعد الذي تحدث عنه الوحي الإلهي على لسان الرسول بولس عندما قال بأنه لم يتم في الشعب اليهودي عامة بل في المسيح بالذات (غلاطية3: 16و 17). أما داود فكان قد وُعِد بأن نسله سيجلس على عرشه من بعده إلى الأبد (2صموئيل7: 12 – 16 وأخبار الأيام الثاني6: 16)، هذا ما ورد في قول المزمور132: 11 "من ثمرة بطنك أجعل على كرسيك". أما النبي إشعياء – الذي تحدث في نبوته عن مجيء الفادي بتفصيل

عجيب – فإنه تنبأ بأن المسيح كان سيولد من عذراء بطريقة معجزية (إشعياء7: 14)، والنبي ميخا ذكر بأن المخلص كان سيولد في بيت لحم (ميخا5: 2).

إن العهد الجديد ينسب إلى يسوع المسيح مشاعر واختبارات بشرية حقيقية، فيما يلي لائحة ببعضها:

1- الولادة
- ولما ولد يسوع في بيت لحم (متى2: 1).
- أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص (لوقا2: 11).

2- النمو
- وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئا حكمة (لوقا2: 40).
- وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس (لوقا2: 52).

3- التعب
- فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر (يوحنا4: 6).

4- النوم
- غطت الأمواج السفينة وكان هو نائما (متى8: 24).
- وكان هو في المؤخر على وسادة نائما، فأيقظوه (مرقس4: 38).

5- الجوع
- فبعدما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا (متى4: 2).
- وفي الصباح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع (متى21: 18).

6- العطش
- يسوع.... قال أنا عطشان (يوحنا19: 28).

7- الغيظ
- فلما رأى يسوع ذلك اغتاظ (مرقس10: 14).
- فنظر حوله إليهم بغضب حزينا على غلاظة قلوبهم (مرقس3: 5).

8- الحنو والعطف
- ولما رأى الجموع تحنن عليهم (متى9: 36).
- فتحنن يسوع (على الأبرص) ومد يده ولمسه (مرقس1: 41).

9- المحبة
- فنظر إليه يسوع وأحبه (مرقس10: 21).
- واحد من تلاميذه الذي كان يسوع يحبه (يوحنا13: 23).

10- الفرح
- كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم (يوحنا15: 11).

11- الحزن والاكتئاب
- وابتدأ يحزن ويكتئب (متى26: 37).
- بكى يسوع (يوحنا11: 35).
- الآن نفسي قد اضطربت (يوحنا12: 27).

12- التجربة
- ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرَّب من إبليس (متى4: 1).
- لأنه في ما هو قد تألم مجرَّبا يقدر أن يعين المجرَّبين (عبرانيين2: 18).
- لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرَّب في كل شيء مثلنا، بلا خطية (عبرانيين4: 15).
13- الصلاة
- صعد إلى الجبل منفردا ليصلي (متى14: 23).
- وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض (لوقا22: 44).
- الذي في أيام جسده إذ قدَّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات (عبرانيين5: 7).

14- التألم
- وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه وبحُبُره شُفِينا (إشعياء53: 5).
- هكذا هو مكتوب..... أن المسيح يتألم (لوقا24: 46).
- مع كونه ابنا تعلم الطاعة مما تألم به (عبرانيين5: 8).

15- الموت
- فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم وأسلم الروح (متى27: 50).
- أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب (1كورنثوس15: 3).

وهكذا فقد أعطي لنا أن نفهم بأنه كانت ليسوع المسيح طبيعة بشرية حقيقية، بما فيها من مزايا البشر الاعتيادية، كما كان أيضا عرضة لنفس الميول البشرية الطبيعية. أما كون طبيعة الرب يسوع المسيح البشرية تامة فهو واضح

من قول الوحي الإلهي: "كان ينبغي أن يشبه إخوته (أي البشر) في كل شيء" (عبرانيين2: 17). إن يسوع المسيح بكل وعي وعن قصد سابق دَعَى نفسه "إنسانا". قائلا: "تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق" (يوحنا8: 40). وقد دعاه البعض من معاصريه "إنسانا". هذا ما قاله بيلاطس عنه: "هوذا الإنسان" (يوحنا19: 5).

- يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قِبَل الله (أعمال الرسل2: 25).
- يوجد وسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح (1تيموثاوس2: 5).

أما سلسلة الأنساب التي تدل على سلالة يسوع المسيح البشرية فلها دلالاتها القاطعة على ناسوته (راجع متى1: 1 – 17 ولوقا3: 23 – 28). تلك القوائم من شأنها ليس الدلالة على ناسوت المسيح فحسب بل أيضا على كونه الوريث الملوكي والشرعي لداود. ثم إن لقب "ابن الإنسان" – بغض النظر عما يحويه من معنى شاسع وعميق – هو في معناه الأساسي يشير إلى طبيعة المسيح البشرية. هذا وإن الكنيسة المسيحية على مدى العصور والأجيال كانت دائما تعتقد بأن مسيحها لم يكن إلها فحسب بل إنسانا أيضا.

إن محدوديات يسوع في مجالات المعرفة تكوِّن موضوعا شيِّقا للدراسة، فكما لاحظنا أنه "كان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس"، وكإنسان لم يكن عليما بكل شيء، فإن الطبيعة البشرية تتصف بالمحدودية، وإذ تمتع بها يسوع فقد ألحقت به المحدودية التي للبشر. من نتائج هذه المحدودية نرى أنه تعجب من إيمان قائد المئة (لوقا7: 9)، كما أنه أبدى عدم معرفته عن وقت انقضاء العالم، ففي إحدى عظاته، قبيل صلبه بأيام، أخبر تلاميذه عن وعي وقصد بأنه لم يكن يعرف وقت انقضاء العالم: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا

يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبي وحده" (متى24: 36). راجع أيضا (مرقس13: 32).

كان يسوع يستعمل قوة معجزية فوق الطبيعة عندما كان يعالج حالات طالبي الشفاء، فعندما لمست ثوبه امرأة بها نزيف دم مزمن، سأل وهو بين الجموع عن الذي لمسه، لأنه شعر على الفور بأن قوة خرجت منه (لوقا8: 45، راجع أيضا مرقس5: 25 – 34). كذلك عندما أخبره مبعوث أسرة لعازر بأن هذا الأخير مريض، عرف يسوع على الفور أن لعازر قد مات. وكان يعرف كذلك بأن القصد من المرض "ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به" (يوحنا11: 4). ورغم معرفة يسوع على التو أن لعازر مات سأل: أين وضعوه، وبكى مع الأختين الثكلتين لكنه ما برح أن أظهر قوته الفائقة للطبيعة بإقامة لعازر من الأموات بعد أن كان ميتا لمدة أربعة أيام (راجع يوحنا11: 1 – 44). وعند عودته من بيت عنيا جاع ورأى من بعيد شجرة تين عليها ورق وعندما اقترب إليها لم يجد فيها ثمرًا فأيبسها بمجرد أمر منه (راجع مرقس11: 12 – 14 و11 : 20).

كتب عن هذا الموضوع أحد كبار علماء اللاهوت يقول: "يسوع نفسه أخبرنا، استنادا إلى البشير مرقس13: 32، بأنه كان يجهل وقت يوم الدينونة، كما وأنه أظهر لنا مرارا وتكرارا رغبته في الحصول على معلومات من بني البشر. لقد كان بالفعل محدودا في طبيعته البشرية، ولكن بدون أي نقص في صفاته. وكان أيضا عرضة للتجارب، كما كان يشعر دائما بحاجته للاعتماد على الله. وهو رجل صلاة مُلِمٌّ بالفرق بين ما يتعارض مع مشيئة الله وشريعته، وما ينسجم ويتفق معها. لم يكن يتمتع بعقل إنسان فقط، بل بقلب إنسان أيضا، وأكثر من ذلك إنسان بدون خطية. إنه من الضروري لنا أن ندرك بأنه قد نما تماما كما ينمو البشر، وهذا لا ينطبق على أيام حداثته فحسب بل أيضا على كل مرحلة من مراحل حياته البشرية على الأرض؛ فقد تم نموه في المعرفة والحكمة والاحترام

والإحسان والقوة الأخلاقية والطهارة والقداسة. لقد كان من الطبيعي أن ينمو يسوع المسيح نموا عاديا تماما كما ينمو البشر في كافة جوانب الطبيعة البشرية".

كان من الضروري للمسيح أن يختبر كل ما هو للإنسان ولكن مع كل هذا التشديد الضروري على الدلائل المؤكدة لصحة وحقيقة وأصالة ناسوت المسيح، فإنه من الواجب التشديد على الأدلة المؤكدة لأصالة وكمال طبيعته الإلهية؛ ففي نفس الوقت الذي يبدو فيه المسيح غير عالم بقضية معينة (راجع مرقس13: 32)، فإنه يظهر كمن هو عالم بكل شيء (يوحنا16: 30و 21: 17). وفي نفس الوقت الذي نرى فيه أنه رغب في الحصول على معلومات من مصادر خارجية وسأل عن أمور لا يعرفها ويتعجب من أمور أدهشته، فإنه أظهر أيضا أنه كان مُلِمًّا بكل ما يحدث، أو ما قد حدث دون أن يخبره أحد. لقد علم بتفاصيل أمور نثنائيل السرية (يوحنا1: 47)، كما أنه كان على علم بخفايا حياة المرأة السامرية (يوحنا4: 29)، ثم أنه كان يعرف حتى أفكار أعدائه بالتمام (متى9: 4). نعم، لقد كان على علم بكل ما في الإنسان (يوحنا2: 25). وهذا الواقع المزدوج لم يكن بالأمر المشوِّش أو المزعج، بل إنه كان يمثل أعظم انسجام وأعمق تضامن. صحيح أن المبعوث أخبره بمرض لعازر، ولكنه لم يكن في حاجة لمن يخبره بحقيقة كون لعازر قد مات. وعلى نفس المنوال نرى كيف أنه في الوقت الذي عبَّر فيه عن ناسوته ومشاعره في بكائه على لعازر وحزنه عليه فإنه عبَّر عن ألوهيته بإقامة لعازر من الموت بمجرد أمر تفوه به.

إيجازا لما سبق فإننا في كل مكان نرى هذه الحقيقة المزدوجة العجيبة في حياة يسوع المسيح، أي أنه له المجد كان يتمتع بطبيعة إلهية وطبيعة بشرية في آن واحد. والذين يصلون إلى معرفة يسوع المسيح من متضمنات العهد الجديد، يجدون أنه لم يكن إنسانا فحسب، بل أنه كان أعظم. وكان يشعر مع من يقترب

إليه من البشر. لقد تقبل بصدر رحب إحضار الأمهات لأطفالهن إليه، كما وأنه فتح قلبه للمرأة السامرية مصغيا لها بصدق واهتمام عند لقائه بها. إنه الإنسان الذي شعر بعمق مع مريم ومرثا وشاركهما البكاء على أخيهما لعازر. لقد صادق صيادي الجليل الفقراء والذين كانت مظاهرهم الخارجية تدعو للنفور وثقافتهم المحدودة تبعدهم عن الناس.

أما نحن الذين نعيش حوالي ألفي سنة بعد قدومه إلى عالم البشر، فإننا نجد أنفسنا مرتبطين به بأقوى وأوثق الروابط الشخصية من المحبة والصداقة؛ فلنا تماما، كما كان للمسيحيين الأولين يقول: "أنتم أحبائي" ومع أنه خالقنا وربنا ونحن نتكل عليه ونطيعه، لكننا ندعوه صديقا لنا. فالحقيقة هي أننا لا نكون قد دخلنا بالفعل إلى حياة الشركة معه، ما لم نتعرف عليه، ليس فقط كربِّنا وخالقنا، بل أيضا كصديقنا الحميم. لقد قال لتلاميذه: "لا أعود أسميكم عبيدا لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي (يوحنا15: 15). وعبر العصور والأجيال لا زال صوته يدوِّي قائلا: "تعالوا إليَّ يا جميع المُتعَبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (متى11: 28).

كل مسيحي حقيقي يثق بما قد قام به يسوع من أجله يجب أن يشعر – كما اختبر التلميذ يوحنا – بأنه "التلميذ الذي كان يسوع يحبه". ويا له من خطأ فادح أن يلجأ البعض لشفاعة البشر ووساطتهم – أحياء كانوا أم أمواتا – كواسطة للوصول إلى المخلص. إننا بتصرف كهذا نكون قد أبعدنا المسيح عن المؤمنين الذين أحبهم ومات عنهم مكفِّرا عن خطاياهم، وقام في اليوم الثالث لتبريرهم.

ثانيا: التجسُّد

"كيف صار المسيح إنسانا وهو ابن الله؟" يجيب الكتاب المختصر لأصول الإيمان على هذا السؤال بالقول: "إن المسيح ابن الله صار إنسانا باتخاذه لنفسه جسدا حقيقيا ونفسا عاقلة، إذ حُبل به بقوة الروح القدس في رحم مريم العذراء ووُلِد منها ولكن بدون خطية".

خُلِق الإنسان، خلافا لكل الحيوانات، على صورة الله وأعطِيَ طبيعة روحية وعقلية ونفسا حية. يقول الرسول بولس بأن الله "ليس بعيدا عن كل واحد منا، لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد" (أعمال الرسل17: 27و 28). ومع أن العنصرين الإلهي والبشري متميزان أحدهما عن الآخر، غير أنهما ليسا أجنبيين أحدهما عن الآخر وليسا أيضا متضادين أو متعارضين؛ فالإنسان هو شرارة من نار عظيمة أو إناء فارغ بحاجة لأن يمتلئ من النبع غير المحدود، لذلك فلا معنى لوجوده سوى في صلته بالله. وبما أن الإنسان مخلوق على صورة الله، أعطِيَ سلطة على المخلوقات الموجودة في الأرض وطير السماء وسمك البحر (تكوين1: 28). إنه في الواقع يتمتع بمركز إلهي مصغَّر ومحدود. ويقول الوحي الإلهي عن البشر: "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم" (مزمور82: 6)، وهذا ما اقتبسه المسيح عندما وجَّه كلامه لليهود قائلا: "أليس مكتوبا في ناموسكم، أنا قلت إنكم آلهة؟" (يوحنا10: 34). إذن الترابط ما بين العنصرين الإلهي والبشري هو في الواقع من متضمنات ونتائج خلق الله للإنسان. وبما أن الإنسان خُلق على صورة الله بالذات فإن كلمة الله الأزلي أمكنه وهو كامل الألوهية، أن يُصبح ابن الإنسان، ذلك لأن الإنسان هو بالطبيعة ابن الله. لم يكن ممكنا للمسيح، وهو كلي الألوهية، أن يصبح له طبيعة أجنبية عن طبيعته، ولا أن يصبح على صورة مغايرة لصورته هو.

لم تكن عملية التجسد غاية في حد ذاتها، بل كانت وسيلة للغاية الأسمى، لأن الإنسان بسقوطه في خطية العصيان، وعدم الثقة في قول الله، قد فصل نفسه عن

الله وأفقد نفسه كل القدرة على تدبير خلاصه بنفسه؛ لهذا السبب أخذ الله على عاتقه عملية خلاص الإنسان؛ ومن أجل ذلك صارت عملية التجسد. فالله الذي تجسد في جسم بشري أخذ مكان الإنسان تجاه متطلبات الشريعة والعدالة الإلهيتين. إذن فإن الغاية القصوى لتجسُّد الرب هي أن يموت. "فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما؛ لكي يبيد بالموت ... ويعتق أولئك الذين خوفا من الموت كانوا جميعا كل حياتهم تحت العبودية... من ثم كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء لكي يكون رحيما ورئيس كهنة أمينا في ما لله، حتى يكفِّر خطايا الشعب" (عبرانيين2: 14 – 17).

إن النص الذي أورده الوحي الإلهي في رسالة الرسول بولس إلى فيلبي2: 5 – 7 هو الأكثر وضوحا في عقيدة التجسد. يشير هذا النص إلى المسيح بالقول: "إذ كان في صورة الله.....، لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا في شبه الناس". وقد وردت في رسائل الرسول بولس- الموحى بها من الروح القدس – إشارات أخَر لموضوع التجسد أمثال ذلك هو ما ورد في كورنثوس الثانية 8: 9 حيث يقول: "فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح.... من أجلكم افتقر وهو غني لكي تستغنوا أنتم بفقره". وفي غلاطية4: 4 يقول: "لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودا من امرأة، مولودا تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني". وفي كولوسي1: 19 يقول الوحي الإلهي عن المسيح: ".....فيه سُرَّ أن يحل كل الملء". وفي2: 9 من نفس الرسالة يقول: "فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا". المسيح إذن، في ولادته من امرأة أخذ على نفسه طبيعة بشرية، ومع أنه بقي على سموه الإلهي إلا أنه صار إنسانا حقا، فإن حلول "كل ملء اللاهوت" في جسد المسيح إنما يعني أن كل ألوهية الله – كل ما يجعل الله الإله الحق – حلَّت في المسيح. لبس لباسا جسديا.. كل من يتطلع إلى يسوع المسيح يرى بدون شك جسدا وإنسانا، ولكن بينما يبدو ذلك واضحا للعيان فإنه من الضروري أن نتذكر بأننا في المسيح نرى الله بالذات بكل كمال لاهوته في

لباس إنساني. يسوع المسيح هو إذن "الله ظهر في الجسد" (تيموثاوس الأولى3: 16).

غير أن غاية الله من التجسد لم تكن إتمام الفداء لبني البشر فحسب، بل كانت الغاية أيضا الكشف عن ذاته للبشر بصورة أكثر كمالا من مجرد سجلات الوحي الإلهي عبر الأنبياء. وهذا يعني أن الحق والسمو يصبحان المبادئ الرئيسية التي تسيِّر الحياة الداخلية لعدد متزايد من البشر عبر الأجيال. في فترة العهد القديم كلَّم الله البشر عبر الأنبياء كاشفا لهم شيئا عن طبيعته وعن حالة الإنسان الخاطئة التعيسة، وأيضا عن مخططه الإلهي للخلاص؛ لكن فترة العهد الجديد، التي نعيش فيها، تتميز بذلك المجد الكامن في الحقيقة، وهي أنه في المسيح جاء الله شخصيا، وفي شخص المسيح وعمله أعطى الله للبشر وحيًا عن نفسه وعن مخطط الخلاص. فالإله الأكبر العظيم الذي خلق هذا العالم, جاء فعلا إلى العالم وعاش بين الناس. هذا هو سر التجسد، أن البشر بأعينهم المجردة رأوا من هو في الحقيقة الله بالذات.

إن المسيح هو نهاية وكمال الوحي الإلهي للبشر، "الله لم يره أحد قط" (يوحنا1: 18) لكن في المسيح، الله الذي هو روح غير محدود، كشف عن نفسه للبشر في كونه قد صار على هيئة البشر المحدودة، حتى أنه في استطاعة البشر المحدودين أن يدركوه في نطاق قدرتهم المحدودة. ومن المهم أن نلاحظ بأن المسيح، عندما دخل في تلك العلاقة الحيوية الشخصية مع الطبيعة البشرية، أضفى عليها بركة لا تُحصى، وذلك نتيجة لتداخل اللاهوت فيها عبر عملية التجسد. وبهذا فإن الطبيعة البشرية أصبحت ذات مكانة أسمى من مكانة الملائكة نفسها، لأن الله لم يختر أن يقترب بعلاقة شخصية حميمة كهذه مع أي من خلائقه الأخرى. "فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما.. لأنه حقا ليس يمسك الملائكة بل يمسك نسل إبراهيم" (عبرانيين2: 14، 16)، كما أن

الطبيعة البشرية التي اتخذها المسيح لنفسه في التجسد ستبقى له إلى الأبد. لقد أحضرها معه حين قام من الموت وعاد بها إلى الآب. ففي السماء ظهر ليوحنا كشبه ابن إنسان في صورة بشرية (رؤيا1: 13)، كذلك فإن استفانوس وهو يستشهد "رأى مجد الله ويسوع قائما عن يمين الله" في مركز الإكرام والعظمة والقوة (أعمال الرسل7: 56). وهكذا فإنه بقيامة المسيح وصعوده وجلوسه على عرش العظمة، رفع معه الطبيعة البشرية وأوصلها فوق كل مكانة في الكون. إن الإقامة القصيرة التي قضاها المسيح على الأرض لم تكن مجرد حضور إلهي أو ظهور وقتي لله في صورة بشرية، بل كانت تجسدا حقيقيا ودائما. بعض شخصيات العهد القديم كانوا قد شاهدوا ظهورات إلهية، مثال أولئك، إبراهيم (تكوين18: 1 – 33) ويعقوب (تكوين32: 24 – 30) وموسى (خروج24: 9 – 11، 34: 5و 6) ويشوع (يشوع5: 13 – 15) ووالدَيْ شمشون (قضاة13: 2 - 22) وإشعياء (إشعياء6: 1 -5) وأصدقاء دانيآل الثلاثة شدرخ وميشخ وعبد نغو (دانيآل3: 24 – 25). لكن تجسد المسيح كان يختلف عن تلك الظهورات اختلافا جوهريا؛ ففي التجسد وُلد ابن الله كطفل في بيت لحم، ولمدة ثلاث وثلاثين سنة استمر ذلك الوصل ما بين الله والطبيعة البشرية بصورة بدت فيها الطبيعة البشرية واضحة جلية.

عقيدة التجسد المسيحية لا يمكن المغالاة في تقدير أهميتها، فإن صحة واستقامة المسيحية كالدين الفدائي والخلاصي الموحى به من الله؛ تَثْبُتان أو تسقطان مع هذه العقيدة بالذات. ولعل أوضح بيان لهذا الواقع هو ما ورد في رسالة يوحنا الأولى والتي أوحِيَ بها في وقتٍ تزايد فيه عدد المرتدين وناكري الإيمان، وقد كان القصد منها ترسيخ إيمان المؤمنين ضد الضلالات التي انتشرت بكثرة وشراسة. أما إحدى تلك الضلالات الرئيسية فكانت ضلالة نكران تجسد المسيح، لذلك نجد أن يوحنا لم يُصِرّ على الاعتراف بحقيقة كون يسوع قد أتى إلى العالم بالجسد فحسب، بل إنه يجعل من هذه الحقيقة أساسا من أساسات

الإنجيل. يقول البشير يوحنا في رسالته الأولى: "كل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي والآن هو في العالم" (1يو 4 : 3)، ثم يضيف قائلا: "كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله... من له الابن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية" (رسالة يوحنا الأولى5: 1، 12، 20).

ثالثا: ميلاده العذراوي

في الفصول الأولى من الإنجيل حسب متى ولوقا ترد نصوص مفصلة عن ولادة يسوع المسيح من العذراء مريم. الاعتبار الأساسي الذي يركِّز عليه الخبر هو كيف أن الإله الرحيم المحب يتدخل لأجل خلاص شعبه تتميما لمواعيده وتنبؤات وَحْيه الطاهر. أما التدخل الإلهي الخلاصي فقد حمل طابعا مُعجزيا. من هنا كان من المهم أن ندرك أن المعجزات التي ارتبطت بمجيء المسيح من عالم البشر (بما فيها ميلاده العذراوي) لم يكن حدوثها لمجرد سد حاجات فردية مختلفة ومتشعبة، ولم تكن مجرد أحداث متفرقة، بل كانت بكليتها مرتبطة ومتراصة معا ضمن نطاق تتميم المخطط الإلهي للفداء، والذي لا شك فيه أن المسيح هو مركزه.

إن المعجزات المدوَّنة في الوحي الإلهي – سواء كانت في العهد القديم أو الجديد من الكتاب المقدس (خاصة تلك التي تختص بتجسد المسيح وقيامته من الموت) – لم تكن وليدة ظروف تاريخية أو اجتماعية عارضة؛ لأننا لو وضعنا نصب أعيننا واقع كون المسيح شخصية غير اعتيادية، فإنه يسهل علينا إدراك ضرورة ارتباط تاريخية دخوله وخروجه من عالم البشر بمظاهر تاريخية معجزية

غير اعتيادية. لذلك ونحن نتعرض لموضوع ولادته المعجزية من عذراء لا بد أن نضع ضمن أساس دراستنا، الظروف الاجتماعية والتاريخية التي رافقت عملية مجيئه إلى عالم البشر. يمكننا ملاحظة هذا في لوقا1: 28 – 38، إذ يسجل لنا الوحي الإلهي أن يوسف خطيب مريم كان رجلا يعمل بالنجارة، ذا وضع اجتماعي متواضع، مع أنه من عرق يهودي صافي؛ لكن الله اختار أن يكون حبل مريم بالمخلص حبلا معجزيًّا بواسطة الروح القدس، مع أن بشارة الملاك أكدت لمريم بأن المسيا المولود منها سيكون له عرش داود بالذات. سمع يوسف عن الأمر وقرر فسخ خطبته من مريم بهدوء، دون أن يسيء الأمر إلى سمعتها. لكن ملاك الرب منعه حتى من تنفيذ الأمر بهذا اللطف، وعرَّفه ببراءة مريم وبضرورة عدم تخلّيه عنها، وبأن المولود منها سيكون من الجهة القانونية ابنا له، مع أنه لم يكن له به أي علاقة جسدية. تقبَّل يوسف مشيئة الله بإيمان وحلَّت الطمأنينة في قلبه وزال الانزعاج. وهكذا تأمَّن مولد المسيَّا من عذراء، في الوقت الذي كانت له من خلال يوسف تغطية أبوية قانونية مثل باقي أقرانه.

إن سجل ولادة المسيح هذا لا شك منسجم تماما مع مكانته العظيمة ورسالته السامية بين البشر. لقد كان مولده ضمن العائلة الروحية والجسدية لشعب الله وخاصة في المحيط الذي تمسك بتعاليم التوراة والأنبياء. جاء متواضعا ومن نسل داود الذي كان مثال العظمة الدينية والروحية والملكية بين اليهود؛ لكن أسلوب مجيئه المعجزي هذا يعكس أمرا هاما للغاية؛ فمن جهة كان يجب أن يكون إلهًا حقا – وهذا تم عبر أسلوب حبل أمه به – ومن جهة أخرى كان من المفروض أن يتمتع بطبيعة بشرية حقيقية، وهذا تم بولادته من امرأة كما هو الحال مع باقي البشر. لعل تلك الحقيقة المزدوجة هي جوهر ولب عملية التجسد نفسها؛ فلو أن المسيح جاء بدون أحد هذين العنصرين (الإلهي والإنساني) لما انطبقت عليه أوصاف المسيَّا المنتظر، ولما تمت النبوءات التي أشارت إلى مجيئه من عذراء (راجع نبوة إشعياء7: 14) كما أشارت إلى وجوده الأزلي السابق وإلى كونه

الرب الآتي للبشر بالذات (راجع نبوة إشعياء9: 6 – 7 ونبوة ميخا5: 2 – 4). ثم أنه لو لم يتوفر فيه هذان العنصران (الإلهي والبشري)، لما كان صالحا لأن يكون فادي البشر والوسيط بينهم وبين المحضر الإلهي. أما وأن ملامح كل من ألوهيته وبشريته قد تجلَّت في ولادته العذراوية واستمرت في الوضوح عبر حياته الأرضية وحتى قيامته من الأموات بعد صلبه، فإنه لم يعد هناك مجال للشك في كونه هو ابن العذراء، الإله المتجسد الذي توقعت قدومه أجيال المؤمنين والمؤمنات.

لكن أهم جوانب ولادة المسيح العذراوية هو الجانب التاريخي لها، فلم تكن مجرد ادعاء تمسكت به مريم أو أقاربها للتأكد من تطبيق نبوءات الأنبياء على الوليد المنتظر أو لستر فضيحة صدمت العائلة. صحيح أن مريم كانت أول من عرف بالأمر، لكن معرفتها جاءت قبل أن يحدث أي شيء، ثم أن الله كشف عن تلك الحقيقة ليوسف خطيبها وللرعاة في البرية وحكماء المشرق الذين ساروا وراء النجم غير المعتاد الذي دلَّهم إلى مكان ولادة الصبي. أما أليصابات أم يوحنا المعمدان فقد أوحى لها الله بتلك الحقيقة وهي في شهرها السادس من الحمل ولم يتبقَّ على ولادة ابنها سوى ثلاثة أشهر، إذ أنها بمجرد لقاء مريم شعرت بتحرك غير طبيعي للجنين الذي تحمله، وقد تفهمت على التو بإرشاد إلهي أن مريم هي العذراء الموعودة التي كانت ستحمل الملك المنتظر الذي يأتي وليدها ليهيئ الطريق لمجيئه (راجع الإنجيل حسب لوقا1: 23 – 55).

لا يخفى على بال أحد أن ولادة يوحنا المعمدان نفسه وحبل أمه به لم تكن خالية من عنصر تدخل المشيئة الإلهية المعجزي، لكن مع أن حبل أليصابات بابنها يوحنا جاء في عمر متأخر، بتدخل إلهي لإصلاح عقمها هي وزوجها، فقد كان مولد يوحنا طبيعيا واعتياديا وليس بطريقة معجزية غير معتادة كما هو الحال مع المسيح (راجع لوقا1: 5 – 25). أما عنصر عدم التشابه الجوهري بين ولادة يوحنا المعمدان وولادة المسيح فقد ارتكز في ولادة المسيح العذراوية؛

فبتدخل الإرادة والقوة البشرية في عملية مجيء يوحنا المعمدان إلى العالم بقي مجيئه إلى عالم الأحياء نتيجة عملية حبل طبيعية اشترك فيها والداه الاثنان. أما ولادة يسوع فجاءت نتيجة لحبل معجزي من عمل الله المباشر، لم يكن لرجل أي دور فيه على الإطلاق. فيما عدا ذلك الأمر فإن المسيح، كيوحنا وغيره من البشر، حملته أمه في بطنها تسعة أشهر، وجاءت عملية خروجه من بطن أمه على نحو طبيعي معتاد. من هنا جاء تركيز المشيئة الإلهية في توضيح فرادة مجيء المسيح إلى عالم البشر على ولادته العذراوية بالذات، وذلك تشديدا ليس على انفراده بالدور الخلاصي الذي جاء لتنفيذه فحسب، بل أيضا لتمتعه بطبيعتيه الإلهية والبشرية. صحيح أنه كان في استطاعة الله أن يأتي إلى عالم البشر بأسلوب مختلف فيما لو كانت تلك مشيئته، لكن اختياره لوسيلة الولادة من عذراء حقق ما أراده هو بأسلوب واضح ومُلِفت لانتباه البشر.

إن ميلاد المسيح من العذراء مريم دل على أمرين هامين بالنسبة لهويَّته. أولا: إن طبيعته الإلهية لم يكن لها أم، وثانيا: إن طبيعته البشرية لم يكن لها أب (ابن الإنسان لم يكن ابن أي إنسان). ثم إن هذين الأمرين فصلا المسيح عن الطبيعة الساقطة الموروثة عن آدم التي اكتسبها ويكتسبها باقي البشر؛ فلولا ميلاده العذراوي لما كان أهلا لتنفيذ عملية الخلاص كإنسان؛ لأنه بدون ذلك يكون قد وُلد في الخطية كباقي البشر، ولولا ميلاده العذراوي ما كان قد حمل تلك الهويَّة والطبيعة الإلهية غير المحدودة التي – دون سواها – تخوِّل له دور حمْل خطايا ذلك العدد الضخم من البشر الهالكين.

رابعا: تواضع المسيح

يخبرنا الرسول بولس في رسالته إلى فيلبي2: 8 بأن المسيح "وضع نفسه" عند إنجازه لعملية الفداء، وقد عبَّر كتاب أصول الإيمان عن هذا

الموضوع كما يلي: "كان اتضاع المسيح, بولادته وذلك في حالة متدنِّية، وبجعله تحت الشريعة, وبتحمله مشقات هذه الحياة، وغضب الله والموت اللعين على الصليب، وبدفنه ومكوثه تحت سلطان الموت إلى حين".

بحسب هذا البيان فإن المرحلة الأولى في اتضاع المسيح كانت في ولادته؛ فكونه رئيس المجد – الذي يشترك في بهاء وجلال الله الآب – قد تنازل لكي يتخذ (في وحدة شخصية ومستمرة مع ذاته) طبيعة هي أدنى للغاية من طبيعته الأصلية. حتى لو أنه دخل العالم كملك متسربل بالأرجوان ومتوَّج بالذهب لكان ذلك تنازلا كبيرا، أما أن يُولد كطفل عاجز يتكل بالكلية على أمه وأن يكون فقيرا لتلك الدرجة المؤثرة بحيث لم يكن له موضع ليسند رأسه، وأن تكون حياته معرضة للخطر، بسبب اضطهاد هيرودس لدرجة أن والديه فرَّا هاربين إلى مصر، فإن هذه كلها تكشف بجلاء عن تنازله الكلي واتضاعه المطلق لصالحنا. هذا ما يصعب على عقولنا إدراكه، فمع أنه كان مصدر الشريعة نفسها، فقد اعتاد في نموه على محدودية كيانه البشري، وأخضع نفسه لمتطلبات الختان. وهكذا أخذ مكانه تحت الشريعة كما لو كان يهوديا عاديا. وهاك ما ذكره أحد علماء اللاهوت البارزين عن المسيح: "سكن في بيت حقير ضمن قرية وضيعة ومحتقرة تدعى الناصرة، وسط جيران خشنين وأفظاظ وفي محيط ضيق ومنكمش ومن أكثر الأماكن تجاهلا من قبل ذوي الشأن. ومع أنه رب الجميع فإنه كان خاضعا ليوسف ومريم كطفل بشري عادي. كما وأنه كدَّ في حانوت النجار وأخضع نفسه لمشقات المساكين والمتضعين. لقد دفعته خدمته الجهارية للاتصال بكل صنف ولون من البشر، ابتداءً بالضعفاء والخطاة, ونزولا بالسفلاء والمنحطين، فلم يتردد عن التوقف للتعامل معهم جميعا. ومع أنه كان إلها قدوسا طاهرا فقد عاشر هؤلاء يوما بعد يوم وكأنه واحد منهم، وكان يأكل مع العشارين المحتقرين ومع الفريسيين المتكبرين. لقد تعرض للجوع والعطش وشعر بهما مرات كثيرة. لم يكن له موضع ليسند رأسه حتى أنه لم يكن لديه ما في جعبة أدنى الأدنياء في

مجتمعه. لقد قاسى عداوة مُرَّة واضطهادا كاسرا، على أيدي زعماء اليهود. ومع أن اتضاع وتألم المسيح استمرا بشكل أو بآخر عبر كافة مراحل حياته الأرضية, فقد ازدادت وطأة آلامه لدى اقتراب خدمته الخلاصية من نهايتها. لقد تعرض في المرحلة الأخيرة من حياته على الأرض لاختبار أعمق وأقسى، ألا وهو اختبار الذل والبغض من قِبَل أعدائه. لقد وصلت المذلة إلى ذروتها عندما جُرَّ محتقرا ومذلولا من قِبَل أعدائه وسط صيحات اللامبالاة القاسية وعواطف الشعب الهائجة ضده والمنادية بجهل وغباء منقطع النظير "اصلبه.. اصلبه..". إنه في ذلك الوقت بالذات كان في بداية حمله للدينونة الهائلة التي كان قد سبق فرآها آتية لا محالة على كافة الأمة اليهودية، تلك الأمة التي كان ينتمي إليها ويحبها. جميع تلك الأمور كانت عبئا عليه. إن تألمه وموته على الصليب إنما كانا أشد أنواع الموت وأكثرها رهبة وعذابا، عبر تاريخ الجنس البشري".

لم تكن الآلام الجسدية كل ما كان عليه تحمله على الصليب؛ فبما أنه كان يقوم بعمله الخلاصي عن شعبه، أي ببذل نفسه فدية، فإنه عومل كما لو كان هو بالذات الذي أخطأ واستحق العذاب، حتى أن حضور الآب الذي كان يلازمه في كل لحظة من لحظات حياته حُجِب عنه تماما في تلك اللحظات كما يحجب الظلام نور الشمس. أما نفسه الحساسة فقد تُركت لتتألم وحدها، في خصام عنيف مع قوى الشر الغاشمة التي سعت باستماتة – يصعب وصفها في هذا الظرف الأخير – آملة في إسقاطه وإحباط عمله الفدائي. أما صراخ عذابه "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" فما هو إلا دليل على شدة تألمه. أما نحن فلا يمكننا أن نتفهم ولو جزئيا مشقَّة ما تحمله وهو معلق على خشبة الصليب، ولكننا نعلم أنه لم يعمل أية خطية ولم يكن للموت أي حق فيه. لقد أخذ مكاننا باختياره وتحمل العقاب الذي استحققناه نحن، وهكذا قدم لنا كفارة عن خطيتنا. لذلك لا يمكننا مجرد طرح مسئولية صلبه على يهود ورومان ذلك العصر، بل ما يمكننا فعله هو أننا بالتوبة والاتضاع نعترف بمظهر الجريمة الأوسع؛ فخطيتنا نحن وخطيتهم هم هي التي

جلبت عليه تلك الآلام المبرحة. لقد تألم بصورة خاصة لأجل المعذبين أفرادا وجماعات، بغض النظر عن العصر الذي يعيشون فيه، لأنه حمل عنهم ذلك الحمل.

ثم إن اتضاع المسيح تم بدفنه في مقبرة أعِدت لبشر، لم يكن موتهم متوقعا فحسب بل كان أمرا محتوما، ففي دفنه اشترك نهائيا مع كل البشر الذين يموتون ويُدفنون، الذين تنحل أجسادهم وتزول. ولكن جسده لم ينحل بل بالأحرى قام من الأموات أمجد قيامة بعد ثلاثة أيام.

خامسا: مجد المسيح

على أي أساس يقوم ارتفاع الرب يسوع المسيح؟ جوابا على هذا السؤال يقول كتاب أصول الإيمان: "إن مجد المسيح يقوم على أساس قيامته من الأموات في اليوم الثالث وصعوده إلى السماء وجلوسه عن يمين الله الآب، وعودته لدينونة العالم في اليوم الأخير".

إن ارتفاع المسيح لا يتعلق بطبيعته الإلهية، التي هي الآن، والتي كانت دائما، مباركة وممجدة؛ بل إن التمجيد يتعلق بطبيعته البشرية لأن طبيعته الإلهية لا تتغير، ولذلك فهي غير قابلة للزيادة أو النقصان. إن اتضاعه كان مؤقتا وقد ابتدأ بولادته وتم بدفنه ولا يمكن تكرار هذا على الإطلاق. أما ارتفاع المسيح فإنه مستمر وقد ابتدأ بقيامته وصعوده وما زال قائما حتى الآن، وهو جالس عن يمين الله الآب ويدير أمور ملكوته بصورة مستمرة. إن هذا سيُكشف عنه بصورة كاملة عند نهاية العالم حين يأتي بمجد أبيه ومع الملائكة القديسين ليدين الشعوب ويعيِّن لكل فرد مصيره الأبدي.

إن قيامة السيد المسيح لم تكن مجرد خطوة أولية لتمجيده؛ بل إنها أيضا واحدة من أعظم حقائق الإنجيل. بهذا العمل انتصر الرب يسوع المسيح على الموت وخرج حيا من القبر. هذا هو البرهان على أن عمله الفدائي كان ناجحا تماما، وانتصاره كان انتصارا تاما على الموت. وقد أظهرت أيضا بأن عمله هذا قد أنجز كل مطاليب الشريعة الإلهية التي سنها الله عند الخليقة الأصلية، بأن النفس التي تخطئ يجب أن تموت؛ لذلك فإن الموت لم يعد له أي حكم عليه ولا على أي من الذين مات عنهم وافتداهم. لقد برهنت قيامة المسيح أيضا على أنه كان كما قال تماما، أي ابن الله (مساو لله الآب)، الذي ظهر في الجسد. وبما أنه تألم ومات – ليس بسبب أي خطية له بل كالقائد الذي ينوب عن شعبه – فإن قيامته هي الضمان على أنه في الوقت المعيَّن سيُقيم أيضا شعبه المنتسب إليه انتسابا حيًّا في قيامة مجيدة. ذلك يعني أن الإنجيل هو حق، وأن الشيطان قد دُحِر نهائيا. انتصرت الحياة على الموت والحق على الباطل والخير على الشر والسعادة على البؤس. كل تلك الانتصارات هي أبدية دائمة كما أبرز الرسول بولس أهميتها الحقيقية القصوى حينما قال: "وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضا إيمانكم.. وإن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم. أنتم بعد في خطاياكم. إذًا الذين رقدوا في المسيح أيضا هلكوا. إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح، فإننا أشقى جميع الناس. ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين. فإنه إذ الموت بإنسان, بإنسان أيضا قيامة الأموات. لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع، ولكن كل واحد في رتبته. المسيح باكورة ثم (يتبعه) الذين للمسيح (والذين سيقيمهم) في مجيئه الثاني" (1كورنثوس15: 14 -23).

النتيجة الأولى والأكثر تأثيرا للقيامة ظهرت في التغيير التام الذي حدث في عقول وقلوب التلاميذ؛ فمع أنهم بعد الصلب كانوا خائري العزم تماما وشكّوا في المسيح كالمسيا الحقيقي المنتظر، فإنهم على ضوء القيامة أصبحوا مقتنعين

اقتناعا كاملا بأن مسيحهم الذي قام من الأموات هو ابن الله، المسيا الموعود به، مخلِّص العالم. منذ ذلك الحين لم يزحزحهم شيء عن اعتقادهم هذا، فخرجوا وصاروا يبشِّرون في كل مكان وأظهروا بأنهم مستعدون لأن يتألموا وحتى أن يموتوا - إذا دعت الضرورة - لأجل الإنجيل. إننا نعلم بأن البعض منهم قد استشهدوا في معرض خدمتهم له، والتاريخ يخبرنا بأن أكثر تلاميذ المسيح انتهت حياتهم الأرضية بالاستشهاد لأجل مسيحهم.

الخطوة الثانية في ارتفاع الرب يسوع المسيح كانت صعوده. يذكر البشير مرقس بشكل موجز أنه بعد أن تكلم مع التلاميذ "ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله" (مرقس16: 19)، ويمين الله هو بالطبع مركز الإكرام والتأثير والقوة والجلال. يقول البشير لوقا بأن المسيح "أخرجهم (أي التلاميذ) خارجا إلى بيت عنيا ورفع يديه وباركهم. وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأصعد إلى السماء" (24: 50و 51). أما السرد الوافي لحادثة الارتفاع فقد قام به لوقا في سفر الأعمال، فبعد تدوين كلمات يسوع الأخيرة للتلاميذ يواصل الوحي الإلهي بالقول: "ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم. وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق، إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض وقالا: أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقا إلى السماء" (أعمال الرسل1: 9- 11).

وعن صعود المسيح قال أحد اللاهوتيين المشهورين:

1- إن صعود المسيح كان بكل أقنومه، كالإله المتجسد، ابن الله المتسربل بطبيعتنا البشرية (ذو جسد حقيقي ونفس ناطقة)، هو الذي صعد.

2- إن صعود المسيح كان منظورا؛ فالتلاميذ شاهدوا كل هذه العملية. قد رأوا شخص المسيح يرتفع تدريجيا عن الأرض و"يصعد" حتى حجبته سحابة عن مرآهم.
3- لقد كان الصعود انتقالا لشخصه من مكان إلى آخر، من الأرض إلى السماء، فالسماء هي إذن "مكان". أما مكان وجود السماء بالنسبة للأرض فلم يكشف عنه الوحي الإلهي، ولكن حسب عقيدة الكتاب المقدس، السماء هي مكان محدد أو معين من الوجود حيث يظهر حضور الله بطريقة خاصة وهو محاط بملائكته الأبرار.. وبأرواح قديسيه الأبرار الذين ماتوا على رجاء القيامة.

السماء هي موطن السيد المسيح وهي عرشه وهيكله؛ فالصعود أو الارتفاع شكَّلا الوجه المقابل لنزوله إلى الأرض. لقد سبق أن بحثنا في موضوع وجوده السابق ورأينا بأنه قد "أتى" أو "أرسل" في مهمة خاصة للفداء. وإذ أتم ذلك العمل بنجاح تام فإنه عاد إلى موطنه السماوي لاسترداد مكانته الأصلية العليا. هذا وإن عالمنا الحاضر، بما فيه من معالم الشر، ليس بالمكان الملائم لوجود الفادي في حالة مجده الكامل، ولا يمكن أن يصلح لاستضافة دائمة للمسيح العلي إلا بعد أن يكون قد تعرض هذا العالم الحاضر لعملية تطهير وإعادة خلق، تجعل منه سماء جديدة وأرضا جديدة. وبما أن السيد المسيح قد جهَّز كفارة فعلية, وأوفى كل المتطلبات القانونية المترتبة على خطايا شعبه؛ فقد كان من الضروري أن يضع تلك الكفارة موضع التنفيذ في حياة من خصتهم, وذلك بواسطة عمل الروح القدس. فالروح القدس هو الذي يجدد نفوس البشر ويعدُّهم إعدادا كاملا للوطن السماوي. ولكي يُنجز ذلك فإنه يقوم بإنارة ألبابهم الروحية وحثِّهم وتوجيههم إلى الإيمان والتوبة، ومن ثم يدفع بهم في مسيرة مطردة نحو التقديس. هذا وإنه بدون قوة الروح القدس المجدِّدَة والخلاَّقة يبقى البشر متجشمين تحت عبء خطاياهم دونما انتفاع فعليّ من عمل المسيح الخلاصي. ولكن مباشرة الروح القدس لعمله الجليل هذا تفترض أن تسبقها عودة المسيح

المخلص لمجده الأصلي مع الآب. لقد أفهم المسيح تلاميذه بالقول: "الحق... إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم" (يوحنا16: 7). فالبركة العظيمة الخاصة التي تنبأ عنها الأنبياء وقالوا بأنها من مميزات عصر المسيا، هي بركة الروح القدس، أما منح تلك البركة الخاصة بالكنيسة فكان مرتبطا بصعود الفادي. لقد تمجَّد لكي يمنح التوبة ومغفرة الخطايا، ولكي يجمع شعبه من كل الأمم وفي كل العصور ليصبح عمله الخلاصي فخرا في حياة المؤمنين. وكان عرشه السماوي أنسب مكان للكشف عن كمال عمله الكفاري. من المفيد بهذه المناسبة أن نشير أيضا إلى أن معاملات الله مع البشر في هذا العالم تشتمل على ثلاثة أشكال متميزة، لكل أقنوم من أقانيم الثالوث الأقدس صلة خاصة بأحدها. في تدبير الله الأبدي كان يوجد ما يمكننا أن ندعوه بتقسيم العمل بين أقانيم اللاهوت، وترتيب معين للحوادث: كان عمل الآب في الخلق والعناية الضابطة لكل شيء، وقد امتد عبر حقبة العهد القديم وحتى ولادة يسوع المسيح في بيت لحم. أما عمل الابن فقد اختص بعملية الفداء وقد ابتدأ بولادته في بيت لحم واستمر حتى يوم الخمسين؛ ففي أثناء ذلك الوقت قام بتجهيز كفارة عملية وأنجز كل المطاليب الشرعية عن شعبه، بحيث يمكن أن يُنقلوا, من حالتهم في الخطية والشقاء, إلى حالة الحياة الجديدة في سلام مع الله. إن عمل الروح القدس يختص بتطبيق عملية الخلاص الكفارية – التي أكملها الابن – وترسيخها في حياة المؤمنين، وقد بدأ عمل الروح القدس هذا بشكله الكامل والواضح في يوم الخمسين، عندما تأسست كنيسة العهد الجديد، ويمتد هذا العمل الخاص للروح القدس حتى النهاية (حتى اكتمال عملية الخلاص وتجميع الكنيسة).

الخطوة الثالثة في ارتفاع المسيح هي جلوسه عن يمين الله. من هناك يوجِّه أمور ملكوته المتقدم ويحافظ على نظامه الكامل. ولكي يكون حكم وساطته ناجحا بالكلية, كان من الضروري أن يُعطى حكما مطلقا حيث قال: "دُفِع إليَّ كل

سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى28: 18). هذا ما قاله عندما عهد إلى تلاميذه بتبشير العالم أجمع. ولقد سجَّل الوحي الإلهي على لسان بولس قوله: "لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه". وأردف قائلا أيضا: "آخر عدو يُبطل هو الموت" (كورنثوس الأولى15: 25و 26). وقد أمر المسيح تلاميذه بأن يذهبوا وأن "يتلمِذوا جميع الأمم" (متى28: 19). ويؤكد على انتماء تلك الشعوب للإله الحقيقي بواسطة المعمودية "عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". والرسالة التي يجب أن يتضمنها ذلك التبشير العام هي بالطبع اللُّب الحيوي للإنجيل "وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به" (متى28: 20). هذا وسنبحث في الموضوع مليًّا عندما ندرس موضوع "المسيح كملك".

الخطوة الرابعة والأخيرة في ارتفاع المسيح ستكون مجيئه الثاني بقوة ومجد عظيم؛ ليكون الديان النهائي للعالم أجمع، فسيظهر حينئذ في جسد قيامته محاطا بالملائكة وسيجلس على كرسي مجده (متى25: 31). "وستراه كل عين" (سفر الرؤيا1: 7). هذا هو يسوع ذاته الذي رُفِض من شعبه وحُوكِم كمجرم أمام محكمة بيلاطس، ودِينَ بظُلم وحُسِبَ مع الأثمة، حينما كان على الأرض. وسينال الناس من شفتي السيد خبر ثوابهم أو عقابهم النهائي، وحينئذ إذ يكون عهد وساطته قد تم وتُوِّج بالنجاح الكامل فإنه يسلم الملكوت للآب ويستعيد علاقته الأصلية بأقنومَي الثالوث الآخرَيْن، ويشترك تماما بالمجد الذي كان له مع الآب قبل إنشاء العالم. وسيملك مع الآب والروح القدس إلى الأبد على المفديين، "ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه سيخضع أيضا للذي أخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل" (1كورنثوس15: 28).

هذا إذن ما نعنيه بارتفاع المسيح، ويجب أن نُعِيد إلى ذاكراتنا أنه لم تكن طبيعة يسوع الإلهية بل طبيعته البشرية هي التي ارتفعت، أي أن الإنسان يسوع

المسيح هو الذي أخذ جسد القيامة وصعد إلى السماء والذي يشترك في الوساطة، والذي ستراه كل الشعوب حينما يأتي ثانية إلى العالم في اليوم الأخير.

سادسا: عصمة المسيح

إن التعرض لموضوع عصمة المسيح وعدم ارتكابه لأي خطأ أو شر، وتوافر كافة مزايا الكمال والطهارة والقداسة في حياته، هو أمر في غاية الحيوية بالنسبة للعقيدة المسيحية عن المسيح بمجملها. إن عصمة المسيح هي العمود الفقري لصموده النهائي وثبات مؤهلاته لأن يكون وسيطا حقيقيا بين الله والناس، فلو أنه أخفق ولو في زلة واحدة خلال حياته على الأرض لتهدم كل البناء الذي جاء لإقامته.

عصمة المسيح، قبل كل شيء، هي المحك الأساسي لكون المسيح ذا طبيعة إلهية، ثم إنها الدليل على أنه كان الإنسان الصالح الوحيد الذي بتَمتُّعِه بالطهارة والكمال تمكَّن من حمل عقاب الآخرين. إضافة إلى ذلك فإن قيامة المسيح من الموت ما كانت ممكنة إطلاقا لو لم يتمتع المسيح بتلك العصمة المطلقة عن الخطأ. لعل تلك الحقائق هي من أكثر معطيات الإنجيل وضوحًا وجلاء.

من المناسب بالطبع أن نبدأ في عرض موضوعنا هذا بالنظر إلى أوصاف المسيا المنتظر التي طرحتها تنبوءات أنبياء وأسفار العهد القديم؛ فقد كان من المفروض فيه أن يكون تقي الله الذي لم ير فسادا (مزمور16:10), وأن يكون عمانوئيل وليد العذراء الذي يَعرف "أن يرفض الشر ويختار الخير" (نبوءة إشعياء7: 15و 16)، وهو "عبد الله الذي يعقل ويتعالى ويرتقي ويتسامى جدا... بحبره شفينا... الرب وضع عليه إثم جميعنا... على أنه لم يعمل ظلما ولم يكن في فمه غش... البار..." (نبوءة إشعياء52: 13؛ 53: 5، 6، 9، 11). من هنا كان

يجب على الملاك الذي بشَّر مريم أن يعرِّفها بأن المولود منها هو "القدوس... ابن الله" (لوقا1: 35).

لكن الشهادة لعصمة المسيح في متضمنات الوحي الإلهي لم تكن مجرد تصريحات، بل كانت مدعمة بحقائق ملموسة وظاهرة للعيان، وموضوعية لدرجة أذهلت من عاصروا المسيح، ولفتت انتباهم كينونة اختلافه عن باقي البشر. هذا مهم للغاية؛ لأن الكثيرين أخذوا بمعجزات المسيح لدرجة أنهم اعتقدوا بأن ذلك هو السبب الجوهري الوحيد الذي سحر الجموع التي تبعته وآمنت به، وإن لفترة وجيزة على الأقل. صحيح أن الأغلبية الساحقة، بين الذين تبعوا المسيح في مطلع خدمته، اجتذبتهم القوة الخارقة التي سيطر فيها على عوامل الطبيعة؛ لكن الواقع أن ذلك لم يكن العامل الوحيد لاجتذاب أي من أتباعه ورسله، الذين التصقوا به وكرَّسوا حياتهم لخدمته. لقد كانت لأخلاقه نقاوة وطهارة، وكان لأسلوب ودوافع حياته أعظم الأثر وأعمق الوقع على هؤلاء، بل لعل ذلك هو العامل الرئيسي وراء حياة الطهارة والقداسة التي مارسها ملايين المسيحيين عبر الأجيال.

الشهادة لعصمة المسيح لم تأت من ملائكة الله والمؤمنين فحسب، بل أيضا من بعض أعدائه. مثال ذلك ما ورد على لسان الخائن يهوذا، الذي أسلمه للموت مقابل حفنة حقيرة من النقود؛ فهو إذ شعر بالندم على عمله المرذول هذا؛ ألقى بتلك النقود على الأرض أمام أولئك الذين أعطوه إياها قائلا: "قد أخطأت إذ سلَّمت دما بريئا" (متى27: 4). ثم إن زوجة الحاكم بيلاطس التي أزعج منامها خبر القبض على يسوع وتسليمه لسلطان زوجها للمحاكمة فقالت لزوجها: "إياك وذلك البار" (متى27: 19). وبيلاطس نفسه إذ أدرك سمو وطهارة المسيح، وبعد أن منعه من إطلاق سراح المسيح جُبْنه وخوفه من اليهود على مركزه قال لهم: "إني بريء من دم هذا البار" (متى27: 24). أما ذلك المذنب الذي كان أحد الاثنين اللذين صُلبا معه، إذ أدرك براءة وطهارة المسيح صرَّح قائلا: "أما نحن

فبعدل ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئا ليس في محله" (لوقا23: 41). كما أن القائد الروماني للمجموعة العسكرية التي أشرفت على صَلبه إذ صعقته حقيقة السمو الأخلاقي والأدبي للمسيح المصلوب قال: "حقا كان هذا ابن الله" (متى27: 54).

لكن شهادة المؤمنين والرسل لعصمة المسيح لا تقل أهمية عن تصريحات هؤلاء، خاصة وهم مجموعة الناس الذين تقربوا إليه وتعرفوا على ما قد نسميه بحياته الخاصة. وهم بالطبع أول من تقع عليه مسئولية دحض ادعاءات المعارضين؛ ولذلك كان لزاما عليهم أن يكونوا الأكثر حرصا على عدم التورط في تصريحات أو أقوال يستعملها أعداؤهم لمحاولة إثبات ضلالهم. ومع ذلك نجد أن التردد لم يطرأ ببالهم وهم يفحصون عن عصمة سيدهم عن الخطأ. الرسول بطرس قال عنه: "لم يفعل خطية ولا وُجِد في فمه مكر" (رسالة بطرس الأولى2: 22), والرسول يوحنا قال عنه: "ليس فيه خطية" (رسالة يوحنا الأولى3: 5), أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فقال: "مجَّرب في كل شيء مثلنا (ولكن) بلا خطية" (4: 15), وقال: "بروح أزلي قدَّم نفسه لله بلا عيب" (9: 14)، كما قال الرسول بولس – مضطهد أتباع المسيح الذي اهتدى بعد ذلك – عن المسيح: "لم يعرف خطية" (2كورنثوس5: 21).

بيد أن الوحي الإلهي يسجل لنا كيف أن المسيح كان قد وضع نصب عينيه، منذ البداية، الطاعة الكاملة والمطلقة لشريعة الله، وكيف أنه لم يتزحزح عن إصراره هذا حتى قاده ذلك إلى الموت (راجع رسالة فيلبي2: 8). وتصريحات المسيح نفسها تدل دلالة قاطعة على وعيه الدائم بضرورة القيام دوما بما يرضي الله (يوحنا8: 29). كان يسوع في صراع مستمر ضد مغريات إبليس الهادفة لإسقاطه وتفشيل مهمته الخلاصية، والواقع أن مواجهته المباشرة مع عدو الخير كانت جُزءًا لا يتجزأ من عملية التحضير لخدمته الجهارية، بل إنها كانت مفتاح

تلك الخدمة؛ لأنها كانت تمثل الحاجز الرئيسي الذي كان يجب عبوره قبل البدء في تلك الخدمة. عندما نقرأ ما دوَّنه الوحي الإلهي بهذا الخصوص نرى أن محاولات إغراء إبليس ليسوع في البرية كانت مبنية على نفس عناصر الإغراء التي تعرَّض لها أبوانا آدم وحواء (قارن تكوين3: 1- 7 مع لوقا4: 1 – 13). تلك العناصر تركزت على شهوة الجسد (الأكل) وشهوة العيون (المنظر الخارجي المغري للأشياء) وشهوة العظمة الاجتماعية (أي تحسين وضع الفرد ومركزه الاجتماعي). وبينما الرغبة في أكل ثمرة الشجرة المحرَّمة والتمتع بمظهرها الجميل والسعي للوصول إلى مركز الإله الخالق (الذي وعدت الحية حواء به)، كانت قد أضعفت صمود حواء وآدم وأسقطتهما في العصيان، فإن المسيح استطاع – رغم شدة جُوعه بعد أربعين يوما من الصوم والضعف الجسدي – أن يُردَّ إبليس ويقهره بعد كل هجوم. آدم وحواء لم يثبتا في كلمة ومواعيد الله وصدَّقا تشكيك الشيطان في صدق أقوال الله، أما يسوع فكان متسلحا بكلمة الحق، الموحَى بها من الله بالذات، التي بواسطتها صدَّ يسوع كل تيارات الهجوم الشيطانية. عندما عاود إبليس الكَرَّة الهجومية محاولا إغراء يسوع وإلهائه عن تكميل مهمته الخلاصية، كان يسوع واعيا لذلك ووقف له بالمرصاد، وقد أخبر يسوع تلاميذه بذلك قائلا: "... رئيس هذا العالم (أي الشيطان) يأتي وليس له فيَّ شيء" (يوحنا14: 30).

ولعل أبرز وأعظم ما ورد في الوحي الإلهي من أدلة على عصمة يسوع عن الخطأ هو ما قاله يسوع نفسه في مواجهته للقيادات اليهودية الدينية التي بنت حياتها على تقوى خارجية زائفة مفعمة بالرياء؛ فبعد أن قال لهم بأنهم ينتسبون إلى إبليس الكذاب والقتَّال وبأنهم ينفِّذون شهواته الشريرة بالذات، نراه يتحدَّاهم مشيرًا لعصمته وإلى تلك الهوَّة الأخلاقية والروحية الساحقة التي تفصله عنهم بالقول: "من منكم (يستطيع أن) يُبكِّتني على خطية" (يوحنا8: 46). والمسيح هنا لم يكن يقصد التمييز ما بين كماله وعصمته وبين شر وفساد ورياء هؤلاء

القادة فحسب، بل إنه طرح وبدون تردد حقيقة تميزه عن كافة الجنس البشري بذلك الكمال وتلك العصمة.

صحيح أن يسوع في تجسده خضع لكافة مغريات وتجارب السقوط في العصيان التي يتعرض لها البشر، لكنه هو وحده لم يسقط، وهو وحده لم يكن من الممكن أن يفشل. لقد كان من المستحيل له أن يرتكب خطية، لأنه وهو في طبيعة بشرية محدودة كان لا يزال يتمتع بطبيعة إلهية، والله لا يمكن أن يرتكب خطأ. هذا أمر جوهري للغاية بالنسبة لتأهله لأن يأخذ على عاتقه تلك المهمة الخلاصية الهامة التي حملها. من هنا كان لاتساع بل ولعدم محدودية عصمته وكماله, الحق في تحمل نتيجة خطية عدد لا يحصى من بني البشر. مِن هنا أيضا متَّل انتصاره على الموت، الانتصار على الخطية التي تقود البشر إلى الموت، وبالتالي تأمين الحياة الأبدية الأكيدة لهم، وليس مجرد الوفاء بمتطلبات العدالة الإلهية بالنيابة عنهم (راجع كورنثوس الأولى15: 51 – 58).

الفصل الثالث
العلاقة ما بين الطبيعتين

أولا: ابن الله وابن الإنسان

1- يسوع المسيح ابن الله

إن لقب "ابن الله" هو من أهم الألقاب المنسوبة للمسيح، فهو اسم يسترعى الكثير من الانتباه لكرامة المسيح وخاصة من جهة ألوهيته التي تدل على أنه مؤهل تماما للتحدث عن أمور الله. إنه ذلك الجانب من طبيعته الذي حاز إعجاب نثنائيل عندما أدرك مندهشا بأن المسيح له إلمام بماضيه المستور، لذلك هتف قائلا: "يا معلم أنت ابن الله أنت ملك إسرائيل" (يوحنا1: 49). أما المعارضة لطبيعة المسيح الإلهية والاشمئزاز منها فقد اتضحت جليا في محاولة التشكيك التي أجراها إبليس عندما تحدَّى المسيح قائلا: "إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا" و"إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل (أي من جناح الهيكل العلوي)" (متى4: 3و 6). هذا حدث أيضا عند إخراج المسيح للشياطين الذين صرخوا عند خروجهم قائلين: "ما لنا ولك يا يسوع ابن الله؟ أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا؟" (متى8: 29). أما تعليق المسيح عن القصد من موت لعازر وإقامته له من الموت فكان "لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به" (يوحنا11: 4). ويتضح هذا أيضا من اعتراف التلميذ بطرس عن المسيح في قوله له: "أنت هو المسيح ابن الله الحي" (متى16: 16) نتيجة لإدراكه لألوهية المسيح. وصرَّح البشير يوحنا أيضا بأن القصد من كتابته لبشارته إنما كان: "لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه" (يوحنا20: 31).

يجب أن نفهم هذين التعبيرين "الآب" و "الابن" على أساس وجهة نظر المفهوم العبري في الكتاب المقدس بأن "الآب" و"الابن" هما نظيران متطابقان ومتساويان في الطبيعة والكيان، ففي كل مرة يدعو فيها الكتاب المقدس المسيح بلقب "ابن الله" يكون

القصد هو التشديد على حقيقة وأصالة ألوهيته. إنه ذو الطبيعة نفسها التي للآب تماما، كما أن الأب البشري تكون طبيعة ابنه طبيعة بشرية مطابقة لطبيعته؛ فالمسيح ابن الله هو مثل أبيه في جوهر طبيعته الإلهية، تلك الطبيعة التي لا يشارك فيها الله أي مخلوق. الآب والابن والروح القدس هم واحد معا في جوهرهم وطبيعتهم وأزليتهم، وهم متساوون في القدرة والمجد، كانوا ولازالوا موجودين في أقانيمهم الثلاثة المميزة. وعلينا أن نتذكر بأن الاسمين "الآب" و"الابن" ليسا بالضرورة كافيين للتعبير الكامل والتام عن العلاقة التي تربط الأقنومين الأول والثاني في الثالوث، ومع ذلك يبقى هذان الاسمان أفضل ما لدينا، نحن البشر، للتعبير عن هذه العلاقة. وعلاوة على ذلك فإنهما يعبران لنا في الكتاب المقدس، ليس فقط عن وحدتهما في الجوهر والطبيعة، بل أيضا عن علاقة الود والمحبة المتبادلة بينهما. المسيح يسوع هو ابن الله الأزلي أما نحن فنصير أولاد الله المتبنين بالنعمة. المسيح هو ابن الله بحقه الأزلي الخاص، أما نحن فبالتبني نصبح أولادا لله عندما نُولَد من جديد وتصبح الحياة الجديدة في المسيح من نصيبنا، أي عندما يُحسَب لنا بره وطهارته. وصيرورتنا أولادا لله لا تعني بأن تكون لنا الألوهية التي للمسيح، لكنها تعني بأننا قد عُدنا إلى مشابهة أخلاقية وروحية أكمل من تلك التي كانت لنا عند الخليقة والتي تشوهت وتحطمت ونُقضت معالمها بواسطة الخطية. الله هو أبو الرب يسوع المسيح بمعنى خاص يختلف كل الاختلاف عن كونه أبا المؤمنين به. صحيح أن يسوع تحدث لتلاميذه عن الله كأبيهم الذي في السموات، لكنه في الوقت نفسه أظهر بذلك أن أبوة الله لهم هي بمعنى محدود ومقيَّد، وليس بالمعنى غير المحدود الذي يرتبط هو فيه بأبوة الآب؛ فبنوَّتهم لله هي نتيجة ارتباطهم بالمسيح الذي هو الابن الحقيقي الكامل لله. وأوضح المسيح ذلك في قوله لتلاميذه: "الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت" (يوحنا16: 27). هذا ما عبَّر عنه البشير يوحنا حين قال: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد لله، أي المؤمنين باسمه" (يوحنا1: 12).

لا يتفق الكتاب المقدس مع النظرية الشائعة بين البعض والذين تشربوا الفلسفة الدهرية صاحبة النظرية التي تدَّعى بأن الجميع هم إخوة. حسب تعليم الكتاب المقدس لا تُبنَى البنوَّة على تلك العلاقة التي نتجت عن كون الله هو خالق البشر أجمعين، إنما هي

مبنية على العلاقة الروحية التي يحصل بواسطتها البشر على الخليقة الجديدة في المسيح. وكخليقة جديدة يصبح المؤمنون أولادا لله بإيمانهم بالمسيح. إن الله هو أب الجميع كخالق الجميع بمعنى كونه مصدر حياتهم، لكن أولاده الحقيقيين بين البشر هم الذين "وُلِدوا من فوق" (يوحنا3: 3). "إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة" (2كورنثوس5: 17). "لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله" (رومية8: 14). كل المسيحيين الحقيقيين هم "أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع" (غلاطية3: 26)، "فإن كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة" (غلاطية3: 29).

خارج دائرة التبني بواسطة المسيح كلمة "أب" معناها سطحي جدا، لأنه في المسيح وحده نقدر أن نعرف الله بالحقيقة: "وليس أحد يعرف الابن إلا الآب.... ومن أراد الابن أن يُعلن له" (متى11: 27). أما أولئك الذين يبقون في خطيتهم وسقوطهم، دون تجديد روح الله، فهم ليسوا أولادا لله حسب مفهوم كلمة الله، بل هم أولاد إبليس، لأنهم كإبليس وشركاء له في طبيعته الشريرة، لأنهم "بالطبيعة أبناء الغضب" (أفسس2: 3). قال يسوع لمقاوميه: "أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تفعلوا" (يوحنا8: 44)، "أنا أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعملون ما رأيتم عند أبيكم.... لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قِبَل الله وأتيت" (يوحنا8: 38 ،42).

هذا ما علَّمه أيضا الرسول بولس، عندما قال للساحر: "أيها الممتلئ كل غش وكل خبث، يا ابن إبليس، يا عدو كل بر، ألا تزال تفسد سبل الله المستقيمة؟" (أعمال الرسل13: 10). وعندما نؤمن بالمسيح نصير أولادا لله لأنه "سبق فعيَّننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه" (أفسس1: 5)، أما المسيح فهو ابن الله بكل ما للتعبير من معنى، إذ أنه قال عن نفسه: "أنا والآب واحد" (يوحنا10: 30)، و"الذي رآني فقد رأى الآب" (يوحنا14: 9), و"من لا يكرم الابن لا يكرم الآب" (يوحنا5: 23). أما بولس فقد قال عنه: "صورة الله غير المنظور" (كولوسي1: 15) و"إن الله كان في المسيح مصالحا العالم لنفسه" (2كورنثوس5: 19), و"فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا" (الرسالة إلى كولوسي2: 9). أما كاتب الرسالة إلى العبرانيين فقد قال بأن المسيح هو بالنسبة لله:

"بهاء مجده ورسم جوهره" (عبرانيين1: 3). إضافة إلى كل ذلك فإن عظات السيد المسيح التي نجدها في العهد الجديد إنما تدل دلالة قاطعة على إحساسه ووعيه الدائم بألوهيته لأنه كان يدرك إدراكا منقطع النظير بالنوعية الخاصة لعلاقته بالله الآب، وكذلك كان الله الآب مدركا كل الإدراك ببنوَّة المسيح يسوع الفريدة.

إن معنى المساواة لله والوحدة معه كان واضحا في اللقبين "الآب" و"الابن"، ويبدو جليًّا من جواب المسيح لليهود عندما شفى يسوع أحدهم في يوم السبت، إذ قال: "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل"، ونتج عن كلامه هذا ما يلي: "كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه لأنه لم ينقض السبت فقط بل قال أيضا أن الله أبوه معادلا نفسه بالله" (يوحنا5: 17و 18). بعد ذلك حاولوا قتله رجما بالحجارة قائلين له: "لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلها" (يوحنا10: 33). والقول بأن المسيح هو ابن الله، كان محور تهمة رئيس الكهنة له، تلك التهمة التي أدت لإصدار مجلس السبعين (السنهدريم) الحكم بالموت على المسيح (راجع متى26: 63 – 66). وقتئذ قال اليهود لزعمائهم: "لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله" (يوحنا 19: 7). أما يسوع فلم ينكر تلك التهمة قط، بل على العكس اعترف علانية بصحة قولهم. وقد علق على موضوعنا هذا أحد كبار علماء التفسير قائلا: "كما أنه (أي المسيح) أخذ عن أمه مريم الطبيعة البشرية، هكذا أخذ عن أبيه السماوي الطبيعة الإلهية، وهو أمر متميز ومختلف عن ناسوته.

إن الكتاب المقدس يشير إلى المسيح باسمين داعيا إياه أحيانا بـ"ابن الإنسان" فلا يمكن إلا وأن تُفهم على أساس أنه نموذج ما يجب أن يكون عليه الإنسان. هذا هو ما يوحي إليه الأصل العبري لـ "ابن الإنسان" والذي يشير إلى أنه ذرية آدم. كذلك فإن تسمية المسيح بـ"ابن الله" تشير إلى ألوهيته وكيانه الأزليين؛ فمن البديهي أن يشير كونه "ابن الله" إلى طبيعته الإلهية تماما كما يشير كونه "ابن الإنسان" إلى طبيعته البشرية (مبادئ الديانة المسيحية – الفصل الأول ص442).

إذن يتضح لنا بأن لقب "ابن الله" كان المقصود منه إبراز المسيح في طبيعته الجوهرية كإله، فالذي "صار من نسل داود بحسب الجسد" هو أيضا نفسه الذي قيل عنه: "تعيَّن ابن الله بقوة" (رومية1: 3و 4). ذاك الذي، بحسب الجسد، أتى من نسل عبراني هو أيضا: "الكائن على الكل إلها مباركا إلى الأبد" (رومية9: 5). نتيجة لذلك علينا أن نؤمن بالابن كما نؤمن بالآب، وأن نكرم الواحد كما نكرم الآخر.

2- يسوع المسيح ابن الإنسان

استعمل يسوع لقب "ابن الإنسان" مرارا كثيرة عندما أشار إلى نفسه، ويبدو أن هذا اللقب كان مفضَّلا لديه. وعبارة "ابن الإنسان" كانت موضع الكثير من الدراسات والنقاش عبر التاريخ المسيحي، والمعنى الحقيقي والرئيسي الذي ينطوي عليه لقب "ابن الإنسان" هو أن يسوع كان إنسانا بكل معنى الكلمة. إنه الإنسان المثالي الكامل. نرى في المسيح الطبيعة البشرية في كمالها، دون تشويه ولا تلوث، وهو الأنموذج والمثال الذي بواسطته يُنَسِّق البشر حياتهم. وبما أن للمسيح طبيعة بشرية فهو ذو علاقة حيوية بجميع أعضاء الجنس البشري، وبناء على تدبير الله، له الحق في تمثيلهم جميعا أمام الحضرة الإلهية.

ويلاحظ أن المزمور الثامن يستعمل هذا اللقب إشارة إلى البشر عامة فيقول: "من هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده؟" (مزمور8: 4)، لكن العهد الجديد إذ ينسبه للمسيح فإنه يعطي الاصطلاح مدلولات تفوق البشر؛ ففي سفر دانيآل ومن ضمن النبوءة عن عودة المسيح إلى السماء يَرد في كلمة الله: "وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه. فأُعطِيَ سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض (دانيآل7: 13و 14). هذا ما فهمه اليهود بدون تردد على أساس كونه إشارة لهويَّة المسيا المنتظر. وأشار المسيح نفسه إلى تلك النبوة وهو على يقين تام من انطباقها عليه فقال: "وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السما. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير. فيرسل ملائكته ببوق

عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح، من أقصاء السماوات إلى أقصائها" (متى24: 30و 31 – راجع أيضا لوقا 21: 27).

تُنتَقى الأسماء عادة بقصد إبراز ملامح فريدة معينة، كإطلاق لقب على إنسان ما بقصد إظهار خلاصة شخصيته؛ فيقال عن فلان "الطيِّب القلب" وعن آخر "النبيل" وغيرها من الألقاب. واللقب هنا دل على شخصية صاحبه وأعطى فكرة عن نوعيته؛ فالناس لا يسمَّوْن تبعا لملامح مشتركة مع غيرهم، بل تبعا لتلك الملامح الخاصة التي تميِّزهم عن أندادهم من البشر. بالنسبة للمسيح فإنه منذ الأزل تميَّز بالألوهية التي شارك فيها الآب والروح القدس؛ فهو شريك لكل من أقنومَيْ اللاهوت الآخرَيْن في ميزات حضورهما في كل مكان وأزليتهما وعلمهما المطلق بكل شيء. أما موضوع التجسد فكان مختصا به، وبه وحده. تلك هي ميزته الخاصة في نطاق اللاهوت. من هنا لم يكن مدهشا أن يكون لقب "ابن الإنسان" قد أوجِد وطبِّق على الزائر المتوقع للأرض ولساكنيها.

إضافة إلى ذلك يجب ملاحظة أن لقب "ابن الإنسان" استُعمل من قِبل يسوع عندما تحدث عن مجيئه وذهابه وعودته بالنسبة لوجوده على الأرض؛ فقد جاء في الإنجيل حسب متى24: 44 و25: 31 و 26: 24 ما يلي:
".. لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان".
"ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه".
"إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه".
كما جاء في الإنجيل حسب لوقا19: 10، "لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك". وكذلك في الإنجيل حسب يوحنا6: 62 "فإن رأيتم ابن الإنسان صاعدا إلى حيث كان أولا".

لقد دُعِيَ لقب "ابن الإنسان" على نحو ملائم جدا "لقبًا انتقاليا" ليس فقط لما يعنيه ذلك من تكاتف المسيح مع الجنس البشري تكاتفا تاما لدى تجسده، بل أيضا لما في ذلك من إشارة لأصله الأسمى قبل التجسد.

ثانيا: انسجام الطبيعتين

لعل أهم وأخطر الانحرافات العقائدية في تاريخ المسيحية هو ما يتعلق بتشويش العلاقة القائمة ما بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية. والواقع أن تلك الانحرافات تركزت بصورة خاصة في الإخلال بالتوازن القائم ما بين هاتين الطبيعتين، وذلك بتفضيل إحداهما على الأخرى أو إعطاء الواحدة مكانة ما، بها تفقد الأخرى نصيبها أو دورها في اتزان البناء القائم في شخصية يسوع المسيح. لكن تلك الانحرافات كثيرا ما ارتكزت على إساءة فهم فقرة أو أخرى من متضمنات الوحي الإلهي. وإساءة الفهم هذه طالما وجدت مسبباتها في استخلاص عبارات واردة في الكتاب المقدس وتفريغها من قرائنها النصية الواردة فيها وتجاهل مواقعها ضمن مجمل ما ورد في سجلات الوحي الإلهي المعينة التي حَوَتْها، خصوصا وأن سجلات الوحي الإلهي تشتمل على عبارات فيها تشديد على طبيعة المسيح الإلهية، وأخَر فيها تشديد على طبيعته البشرية، إلى جانب تلك التي تجمع ما بين خواص الطبيعتين. من هنا كانت إمكانيات إساءة الفهم، لأن البعض بنوا استنتاجاتهم على أساس الافتراض بأن المسيح كان إلهًا فقط وفتشوا على ما يؤكد مزاعمهم هذه بين طيَّات الوحي الإلهي. والبعض أكدوا على أنه مجرد إنسان، وسَعَوا إلى إثبات ذلك من خلال نصوص الوحي الإلهي في تلك العبارات التي تركز على جانب الطبيعة البشرية فيه. وهكذا ظهرت البدعة تلو الأخرى وكلها تشير إلى خطإٍ فادح أساسي ألا وهو عدم التمسك بالهيكل الكامل للحقيقة.

إن الواقع التاريخي يشهد ليسوع المسيح الإله والإنسان؛ فيسوع تمتع بقدرات فاقت جدا معطيات الطبيعة البشرية، لكن من جهة أخرى فإن طبيعته البشرية طابقت تماما تلك التي تمتع بها معاصروه من البشر. ومع أنه يصعب علينا – بل ولا يجوز لنا أن نحاول – الفصل المطلق بين العناصر الطبيعية وفوق الطبيعية في شخص المسيح، فإن دلائل التمييز ما بين الطبيعتين البشرية والإلهية الكامنة وراء كل من تلك الدلائل والبراهين التاريخية المتعلقة بطبيعتي السيد المسيح هي اثنان: العهد الجديد والمعتقدات العلنية الراسخة عند المؤمنين الأوائل الذين عاصروه. كان أمرا بديهيا للذين اهتدوا للإنجيل

وآمنوا بالمسيح أن يؤمنوا به على أنه الله المتجسد؛ فهذا الأمر لم يكن في حاجة إلى إثبات، بالرغم من تنوع الدلائل التي تشير إلى ذلك بانسجام مطلق. وهذه الدلائل لن تترك لأحد مجالا للشك في صدقها واستقامتها، فهل كان ممكنا ليسوع المسيح أن يتمتع بطبيعتيه بانسجام كامل؟ تلك لم تكن القضية، بل كان ذلك أمرا مفروغا منه إذ لم يكن من داع للبحث عن دلائل عليه، فالذين عاصروه وعايشوه بالذات هم الذين استخدمهم الله في تدوين ما أوحى به عن هذا الأمر لأجيال المؤمنين اللاحقة من بني البشر، إذ سجَّلوا شهاداتهم عنه: "الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا.... قد رأينا ونشهد ونخبركم... ونكتب إليكم هذا...." (رسالة يوحنا الأولى1: 1 – 4).

في التجسد أضاف الرب إلى طبيعته الإلهية نوعية أخرى، هي الطبيعة البشرية (الأمر الذي من شأنه تكوين شخصية مزدوجة). لم تكن الإضافة بمعنى وجود شخصية إضافية، بل بمعنى إضافة نوعية بشرية إلى الطبيعة اللاهوتية؛ ففي الوقت الذي لم يتخل فيه عن طبيعته الإلهية لم يتخذ لنفسه شخصية جديدة، بل أخذ لنفسه جميع الجوانب البشرية الاعتيادية التي يتمتع بها البشر، أي أنه إلى جانب كونه إلها، أصبح إنسانا أيضا. هذا كان في طبيعتين متميزتين، ولكنه كما كان منذ الأزل، بقي هو ذاته شخصا واحدا.

من المؤكد أن هذا الأمر يتضمن ما يمكن تسميته لغزا لا يمكن استيعابه بشكل كامل، لكن طبيعة ذلك اللغز ليست غريبة على اختبارنا نحن البشر، فذلك اللغز بالذات كامن في طبيعتنا البشرية نحن أيضا. إن الإنسان يحتوي على جوهرين مختلفين في الأساس، فهو من جهة روح أو نفس غير مادية، خاضعة لتأثيرات فكرية وروحية، ومن الجهة الأخرى هو جسد مادي خاضع لكل العوامل والقوى الفيزيائية والكيميائية والكهربائية التي تعمل في العالم من حوله. هذان الجانبان في الطبيعة البشرية لم يُصهرا ولم يختلطا ولم تكن نتيجتهما هيكلا ثالثا دعي بالإنسان، بل إن هذين الجانبين بقيا قائمين أحدهما إلى جانب الآخر في انسجام كامل، كما بقيت خواص كل منهما متميزة في الإنسان ذاته، وظل كل منهما خاضعا لشرائع دائرته بكل دقة كما لو أنه كان منفصلا انفصالا كاملا عن الآخر. ومع ذلك، عند الإشارة إلى أي من هذه الخواص الإنسانية إنما تكون الإشارة إلى شخصه

بالذات. فلا تقول جسد فلان عمل كذا أو نفس فلان قالت أو فكرت كذا، بل تقول فلان عمل وفكر وقال كذا وكذا.

هكذا الأمر بالنسبة لطبيعتي المسيح، فمع أنهما متميزتان إحداهما عن الأخرى فإن ما يُنسب لإحداهما إنما ينسب لشخص المسيح ككل. من هنا كانت ضرورة الحذر من السقوط في إساءة فهم تلك التعبيرات الإنجيلية التي تبدو وكأنها متناقضة في وصفها للمسيح؛ فمنها ما يشير إلى كون المسيح شخصًا غير محدود، وهي – إذا ما تعمقنا في قرينة ورودها – تشير إلى طبيعته الإلهية، ومنها ما يشير إلى محدوديته، وهي تلك التي ترد في قرينة الحديث عن طبيعته البشرية. فهو إذن محدود كإنسان ولكنه غير محدود كالله، وهو ذو بداية كإنسان عند ولادته في بيت لحم، ولكنه أيضا هو الله الموجود أزلا. وهو كان على علم بكل شيء وفي نفس الوقت كانت طبيعته البشرية محدودة المعرفة. فهو من جهة تركيب طبيعته "من نسل داود حسب الجسد" كما يقول الكتاب المقدس، لكن الكتاب المقدس يقول أيضا بأنه "تعيَّن (أي تبرهن) ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات" (رسالة رومية1: 3و 4). خلاصة الأمر هي أن الكتاب المقدس يقدمه على أساس أنه "ابن داود"، وفي نفس الوقت هو "الأزلي قديم الأيام". ابن مريم هو، وفي نفس الوقت هو "إله فوق الجميع، مبارك إلى الأبد". هو الشخص الذي شعر بالإرهاق أثناء رحلاته الصعبة مشيا على الأقدام، وهو في نفس الوقت من يقول عنه الوحي الإلهي "حامل كل الأشياء بكلمة قدرته"، وهو الذي "جاع أخيرا" بعد أربعين يوما من الصوم، وفي نفس الوقت هو نفس الشخص الذي أشبع الآلاف وقال عن نفسه: "أنا هو خبز الحياة.... أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد.... " (يوحنا6: 48 – 51). هو الذي قال إنه لا يقدر أن يعمل شيئا بدون الآب، وفي نفس الوقت هو الذي "بغيره لم يكن شيء مما كان". إنه "عظم من عظامنا ولحم من لحمنا"، ومع ذلك تمتع بمساواة مطلقة مع الله. هو الذي أخذ على نفسه "صورة عبد" وهو نفسه الذي تمتع بكونه "صورة الله". قال الوحي الإلهي عنه إنه "ينمو في القامة"، كما قال عنه إنه "هو هو أمسا واليوم وإلى الأبد". أيضا قال الوحي عنه "يتقدم في الحكمة"، ومع ذلك فقد عرف كل شيء عرفه الله. قيل عنه

"مولود تحت الناموس (الشريعة)" لكنه قال عن نفسه إنه "رب السبت وأعظم من الهيكل". إن نفسه حزنت واضطربت وهو "رئيس (أو مصدر) السلام". هو الذي سار إلى الموت تحت إمرة الحاكم الروماني، كما أنه هو الذي دُعي "ملك الملوك ورب الأرباب"، وهو الذي قال عن ذلك الموت: "أضع نفسي لآخذها أيضا... ليس أحد يأخذها مني (أي يقتلني) بل أضعها أنا من ذاتي. لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضا" (راجع يوحنا10: 17و 18). لقد صعد إلى السماء وغاب عن تلاميذه وكنيسته لكنه هو نفس الشخص الذي قال: "حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم"، وقال لتلاميذه قبل الصعود بأنه سيكون معهم "إلى انقضاء الدهر".

إذن الوحي الإلهي يقدم المسيح لنا أحيانا كإله وأحيانا كإنسان لكي نفهمه ونعرفه ونؤمن به كشخص واحد في طبيعتين، كإله وكإنسان، وليس لكي يعطينا الخيار ما بين واحدة من طبيعتيه هاتين. إنه الله المتجسد الذي كانت حياته الأرضية تعبيرا عن أنه جاء إلى عالم البشر وكشف عن نفسه ووضع الأساليب التي يمكن للبشر استيعابها، بصيرورته إنسانا مثلهم. وهكذا فإن طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية اتحدتا لدرجة بحيث أن الصفات أو الخواص المنسوبة لأي منهما نسبت إلى شخصية الواحد ككل، فسواء دعوناه يسوع أو المسيح، ابن الله أو ابن الإنسان، فإننا نقصد الإشارة إلى نفس الشخص. عندما نقول بأن يسوع عطش فإننا نعني أنه كشخص كامل في ألوهيته وناسوته قد عطش وليس جسده فقط. وعندما نقول إنه تألم نقصد بتألمه كشخص وليس كمجرد جسد، وهو إذ أخذ مكان الإنسان على الصليب ومات عنه، فإنه لم يعمل ذلك كإنسان فقط، بل إننا نعني أيضا بأن الله في المسيح أخذ مكان الإنسان على الصليب ومات لأجلنا نحن البشر. كل ذلك يعبِّر عن الحقيقة، لكن وجب علينا بالطبع أن نبقي نصب أعيننا حقيقة فرادة شخصه التي مكَّنته من إنجاز ذلك العمل الخلاصي المجيد.

لعل أهم ما يواجهنا به الوحي الإلهي من تعبيرات في شأن انسجام طبيعتي المسيح، هو ما نسب إليه من أعمال وقُوَى وصفات تنطبق على الطبيعتين، في إشارة جليَّة إلى المسيح الواحد. هذه التعبيرات التي تنطبق على طبيعتيه لا يمكن فهمها أو تفسيرها إلا من

منطلق كون هاتين الطبيعتين متحدتين عضويا، بشكل غير قابل للفصم أو الانحلال في شخص واحد هو الإله الإنسان. فالوحي الإلهي الطاهر يقول عن أعداء المسيح: "صلبوا رب المجد" (كورنثوس الأولى2: 8)، ويشير إلى كنيسته بالقول: "التي اقتناها بدمه" (أعمال الرسل20: 28). ويقول: "يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح" (تيموثاوس الأولى2: 5). إن العبارة "مريم والدة الإله"، التي يستعملها بعض المسيحيين، تعكس شيئا من الحقيقة، إذ أن المولود منها كان ابن الله، لكننا في نفس الوقت يجب أن نتذكر بأن مريم كانت والدة المسيح من جهة طبيعته البشرية فقط. لقد كان من الضروري لفادي البشر أن يكون إلهًا وإنسانا معا؛ فمن جهة كونه إنسانا هو من أجل أن يأخذ محل الإنسان فيتألم ويموت لأجله، فلو كان مجرد إله لما أمكنه عمل ذلك. وضرورة كونه إلهًا هي لإعطاء القيمة والمدى غير المحدودين المتطلبين في الذبيحة الصالحة للتكفير عن خطايا البشر. من ناحية ثانية، لو كان المسيح مجرد إنسان لما كان بإمكانه الموت حتى عن شخص واحد. خلاصة الأمر إذن أن طبيعته البشرية جعلت تألمه وموته ممكنين، بينما طبيعته الإلهية جعلت لهذين العنصرين (الألم والموت) القيمة والمدى غير المحدودين والصالحين لتمثيل عدد لا يحصى من الخطاة. هذا ما طرحه بوضوح بالغ يوحنا كالفن القائد الشهير للإصلاح الإنجيلي عندما قال: "لكي يمكن للإنسان أن يتصالح مع الله فقد كان لزاما عليه – وهو الذي دمر نفسه بمعصيته – أن ينفذ مطاليب العدالة الإلهية بتحمل عقاب خطيته، غير أن الله في رحمته، إذ أدرك استحالة ذلك على الإنسان، فإنه كشف عن نفسه في المسيح كإنسان حقيقي وأخذ لنفسه صفة آدم الثاني، ممثلا بنفسه بني البشر وجاعلا من نفسه بديلا عنهم في إطاعة شريعة الله، واضعا جسده بنفسه ثمنا للوفاء بمطاليب العدالة الإلهية، وهكذا تحمل بنفسه القصاص، المتوجب على عصياننا جميعا، في طبيعة إنسانية معادلة لطبيعتنا، التي فيها ارتكبنا ذنب العصيان. وبما أنه كان من غير الممكن للطبيعة الإلهية الروحية الموت فإنه أضاف إلى طبيعته الإلهية طبيعة بشرية صالحة لذلك".

المسيح إذن في تجسده وحَّد مع نفسه طبيعة بشرية وليس شخصا آخر، أما شخصيته فبقيت واحدة موحدة متجانسة ومتناسقة دون تشويش أو اختلال.

ثالثا: وظائف المسيح الثلاث

إن الانسجام الكامل في طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية الذي تعرضنا له سابقا، له موقع مركزي وحيوي فيما خص تحقيق جميع المقاصد الإلهية المتعلقة بعالم البشر، وليس فيما خص عملية الخلاص وحدها. لكن تنفيذ عملية الخلاص جزء لا يتجزأ من مجمل تلك المقاصد. صحيح أن فداء بني البشر هو المحور الأساسي الذي ترتكز عليه مجموعة مخططات الله – وهذا طبيعي – لأن سقوط بني البشر، بسبب عصيانهم لشريعة الله، هو المحك الذي أوجب، ليس فقط عملية التجسد والخلاص، بل أيضا جميع التأثيرات الفرعية التي لزم أن يخطط الله لاستئصالها أو إصلاحها أو إعادة بنائها. أما تحقيق المسيح لجميع هذه المقاصد الأزلية، وعلى رأسها فداء البشر، فقد جرى ضمن نطاق وظائف أو أدوار ثلاثة، إذ توجب عليه أن يكون نبيا وكاهنا وملكا.

1- المسيح النبي

إن وظيفة المسيح النبوية كانت ضمن الخواص المميزة للمسيا الذي تنبأت عنه أسفار العهد القديم. والواقع أن النبوة الواردة بهذا الشأن كانت إحدى النبوات الواردة في الوحي الإلهي عن مجيء المسيح، وقد جاءت على لسان النبي موسى: "يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك، من إخوتك مثلي. له تسمعون" (سفر التثنية18: 15). أما في العهد الجديد فقد أشار الرسول بطرس ضمن إحدى مواعظه العامة مشيرا إلى هذه النبوة وطبَّقها على المسيح: "موسى قال للآباء إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم. له تسمعون في كل ما يكلمكم به" (أعمال الرسال3: 22).

إن وظيفة النبي في الكتاب المقدس تختص بأولئك الذين تكلموا للبشر بالنيابة عن الله. من الطبيعي أن يكون المسيح ذا مكانة خاصة ضمن دائرة أنبياء الله. والواقع أن هذا أمر حيوي بالنسبة لمهمة المسيح التي جاء إلى عالم البشر لتنفيذها. إن العديد من الأنبياء الحقيقيين كانوا قد سبقوا مجيء المسيح وجميعهم تكلموا بكلام الله للشعب، لكن

ما أوحى الله لهم به كان ذا طبيعة تمهيدية وغير مكتملة. لقد كانوا جميعا يرمزون للمسيح النبي الأعظم الذي كانوا قد أتوا من أجل التمهيد لمجيئه.

يعتقد البعض بأن الله أرسل مزيدا من الأنبياء الواحد تلو الآخر، لعدم نجاح الأنبياء السابقين في إتمام مهماتهم أو لسبب حاجة الناس لمن يذكِّرهم بما سبق وأوحى به للأنبياء الذين أتوا في أجيال سابقة. لكن ذلك ليس مفهوم الكتاب المقدس. إن أنبياء الله لم يفشلوا، ولا واحد منهم، في تحقيق ما أراد الله تحقيقه عن طريقهم. أما سبب تعدد الأنبياء وتوالي قدومهم من قِبَل الله في حقبة العهد القديم، فمرجعه أن لكل منهم دوره في التمهيد لمجيء المسيح. من المهم للغاية أن ندرك هذه الحقيقة لأنها تعكس علينا إدراكا صائبا لكون الوحي الإلهي، عبْر أنبيائه، لا يعتريه تناقض أو نقصان بحيث أن الله يسعى لإصلاح ما تهدم بإرسال مزيد من الأنبياء. الله لا يسمح بأي فشل في تأدية أنبيائه لمهمتهم، ولا بأي تشويش يؤثر على ما ينقلونه عنه للبشر الآخرين. لذلك لا يجوز لنا الاعتقاد بأي شيء من هذا القبيل، إلا إذا كنا نعتقد بأن الله غير جدِّي فيما يعمل، أو أنه غير قادر على إنجاز ما يريد عمله، وهو تفكير خاطئ وغير صحيح عنه تعالى؛ فالله وهو كلي السيادة، أعطى عصمة خاصة لأنبيائه حين دوَّنوا الوحي كاملا بدون خطإٍ، وهو في نفس الوقت، بحكمته وسلطانه، عمل على حماية ما دوَّنوه، من التحريف أو الفقدان، عبر الأجيال.

لقد أدَّى كل من هؤلاء الأنبياء دوره بكل أمانة وجدارة، مدعومين بقوة الله، في التحضير التدريجي لمجيء المسيح؛ فلو أن الله كشف عن كل شيء دفعة واحدة، لما كان من الممكن لبني البشر استيعابه. من هنا كانت ضرورة الطبيعة التدريجية والتقدمية للوحي الإلهي، كما أن ذلك هو السر الحقيقي وراء ذلك الترابط والتكامل بين أدوار الأنبياء المعكوس في أسفار الكتاب المقدس. إن المرء الذي يتأمل بالتدقيق في مسيرة هؤلاء الأنبياء، لا بد وأن يدرك كيف أن الوحي الإلهي قد أخذ شكل هرم متدرج الأطوار، بَنَى فيه كل نبي على ما سبق وبناه أقرانه من قبله. أما قمة الهرم فيقف عليها المسيح مُكَمِّل الوحي وخاتمته. ليس هذا صورة خيالية أو تخمينا بشريا، بل نجده مدوَّنا ضمن ما أوحى به الله نفسه، إذ قال عن مؤمنيه على لسان الرسول بولس: "مبنيين على أساس

الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركبا معا ينمو هيكلا مقدسا في الرب" (الرسالة إلى أفسس2: 20و 21).

بيد أن هناك اختلافا جوهريا آخر ما بين دور المسيح كنبي وبين أدوار أنبياء الله. لقد تكلم الأنبياء كبشر مسوقين من عند الله وليس من عندياتهم، بينما تكلم المسيح كالله. كانوا دائما يصحبون رسالتهم بتعابير مثل "هكذا يقول الرب"، ولم تكن لديهم السلطة ولا القدرة على قول أي شيء بالنيابة عن الله إلا ما كان قد أوحى به الله إليهم. أما يسوع فقد كان يؤكد في رسالته على الدوام بأنه إنما يقول ما يقوله بسلطانه هو. عندما أشار لأقوال الأنبياء قال: "قيل لكم"، لكن عندما أشار إلى ما يقوله هو قال: "أما أنا فأقول" أو "الحق الحق أقول لكم". الأنبياء تحدثوا بالنيابة عن الله، أما المسيح فتحدث بالأصالة عن نفسه وانطلاقا من سلطانه الشخصي. والواقع أن ذلك ما أدهش معاصريه الذين لاحظوا أنه يختلف عن الأنبياء ورجال الدين، "لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة" (متى7: 29 ومرقس1: 22)، "لأنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه" (مرقس1: 27 ولوقا 4: 36). هذا وقد صرح يسوع أكثر من مرة بأن له سلطانًا يفوق ما هو لأي بشر (متى9: 6 ومرقس2: 10 ولوقا5: 24)، كما أن رسله الذين أوحى لهم بكتابة الإنجيل بواسطة الروح القدس، أعطاهم السلطان في مهماتهم النبوية (راجع متى10: 1 ومرقس6: 7 ولوقا9: 1). إذًا فهو في مهمته النبوية عبَّر عن سلطان لم يكن للأنبياء البشر، بالإضافة إلى الحق في إعطاء السلطان للأنبياء البشر.

بالرغم من أن يسوع أشار إلى نفسه كنبي لديه رسالة خاصة من الله الآب (راجع لوقا13: 33 ويوحنا8: 26 – 28، 12: 49و 50 ، 14: 10و 24)، إلا أن أعماله النبوية الخاصة لم تكن في حاجة إلى تأكيد شفوي على مركزه النبوي، فقد تنبأ عن المستقبل (متى24: 3 – 35، لوقا19: 41 – 44). ثم إن تعاليم المسيح كانت ذات طبيعة نبوية في صبغتها الغالبة. كان من الطبيعي اذًا أن يشير إليه الناس كنبي (متى21: 11 و 46، لوقا7: 16، 24: 19، يوحنا6: 14، 7: 40 و9: 17). وبالرغم من أن مواصفات النبوة الشائعة في حقبة العهد القديم انطبقت عليه من جهة علاقة تصريحاته بالماضي والحاضر

والمستقبل (راجع خروج7: 1، عدد12: 6 – 8، تثنية18: 18، إشعياء6: 8، إرميا1: 4 – 10، حزقيال3: 1 – 4 و17)، إلا أن المسيرة النبوية الجوهرية التي طغت على خدمته كانت تكمن في مقدرته الدائمة على تفسير الشريعة الإلهية وتطبيقها على الحياة اليومية المعاصرة. أما تفسيره للشريعة الإلهية فقد كان مدعوما دائما بحياته الطاهرة وسلوكه الذي لم تَشُبْهُ شائبة أخلاقية. في هذا لم تنطبق عليه مواصفات النبوة فحسب بل توَّجته ورفَّعته على كل الأنبياء؛ فالنبوة في مفهوم الوحي الإلهي ليست مجرد ادعاء بالحصول على وحي أو رسالة من الله، إنها دائما، وبحسب مواصفات الكتاب المقدس، مصحوبة بقوة معجزية خارقة تدل على أن الله هو مصدرها. ثم إنها أيضا مصحوبة بحياة نقية طاهرة يتحلَّى بها النبي، دلالة قاطعة على أن تكريسه للنبوة هو من الله. هذا بالطبع مغاير لادعاءات الكثيرين من الأنبياء المزيفين قبل وبعد المسيح، فهؤلاء اتسمت ادعاءاتهم بخلوِّها من القوة المعجزية الإلهية، ومع أنهم ادعوا المقدرة على القيام بالمعجزات فإن سجلاتهم تشهد بأن المعجزات التي ادعوا القيام بها كانت من نسج خيالهم ولم تكن من مصادر موثوق بها تدعم ادعاءاتهم، لأن المعجزات الحقيقية التي مصدرها قوة الله لا تحصل في الخفاء بل في العلن وإلا لما كان لحصولها أي معنى. بيد أن الحياة الأخلاقية للأنبياء الكذبة عبر التاريخ تتسم بفساد جنسي ورغبة قوية في التسلط على الآخرين، بالإضافة إلى الخوف الدائم من المعارضين والسعي للبطش بهم. أما الأنبياء الحقيقيون، والذين كان يسوع مثالهم الأسمى، فإن تقواهم الحقيقية لم تكن تخفى على أحد، ثم إنهم عبَّروا عن ثقة دائمة في الله وعن رغبة دائمة في إطاعة شريعته وأوامره الخاصة، حتى وإن قادهم ذلك إلى الموت. أما ثقتهم في الله فقد دلت عليها حياة التضحية التي مارسوها كل يوم، لأنه لم يكن يهمهم إرضاء البشر على الإطلاق بل إرضاء الله، في كل ما يقولونه ويعملونه ويفكرون به. أما المعجزات التي صحبت خدمتهم فلم يستعملوها لنيل ربح شخصي، بل على العكس نراهم يقشعرون ويهتزون عندما ينسب أحد لهم سلطة إلهية أو عندما يعتقد البعض بأن معجزاتهم تلك ناتجة عن مقدرة كامنة فيهم.

من هنا وجب علينا أن نتذكر أن يسوع لم يكن مجرد نبي عادي. إن تفوقه المعجزي والأخلاقي الخارق لم يكن الفارق الجوهري الوحيد، لأنه بعكس باقي أنبياء الوحي الإلهي

تمتع بمركزه وخدمته النبويتين من قبْل مجيئه إلى عالم البشر. إن "روح المسيح" هو الذي دل الأنبياء وقادهم وأوحى إليهم من قبل مجيئه (راجع رسالة بطرس الأولى1: 10 – 12).

كما أن مهمة المسيح النبوية امتدت إلى المستقبل، حتى بعد عودته إلى يمين العظمة في السماء لأنها كانت لها فعالية قبل وأثناء تجسده؛ فهو إذ صعد إلى السماء واصل خدمته النبوية عبر رسله الأطهار (راجع أعمال الرسل1: 1)، ثم إنه لا يزال يقوم بمهمته النبوية تلك عبر الروح القدس المعزي الذي أرسله إلى كنيسته لينعشها ويقويها ويطبق في حياتها متضمنات كلمته الطاهرة (يوحنا14: 26، 16: 12 – 14).

2- المسيح الكاهن

إن وظيفة المسيح الكهنوتية كانت بدورها أيضا ضمن الخواص المميزة للمسيا الذي تنبأت عنه أسفار العهد القديم، فقد قيل عنه: "أنت كاهن إلى الأبد" (مزمور110: 4). كما قالت النبوة إنه: "يبني هيكل الرب ويحمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسيه ويكون كاهنا على كرسيه" (نبوة زكريا 6: 13). أما الوصف الكامل لمركزه وخدمته الكهنوتية فقد ورد قبل مجيئه إلى عالم البشر بنحو سبعمائة سنة، وذلك على لسان النبي إشعياء في الفصل الثالث والخمسين من نبوته، الذي يعتبر من أجمل سجلات الوحي الإلهي.

إن وظيفة الكهنوت في الكتاب المقدس يمكن اعتبارها الوظيفة الموازية لوظيفة النبوة؛ فبينما يقوم النبي بنقل رسالة من الله إلى البشر، فإن الكاهن هو الشخص الذي يقوم بتمثيل البشر أمام الله، وذلك إما بتقديم ذبائحهم لله بالنيابة عنهم، وإما بنقل صلواتهم وطلباتهم إلى الله. إن ذلك بالطبع يعود لفقدان البشر المقدرة على الوقوف أمام الله بأنفسهم بسبب فسادهم وخطيتهم؛ لأجل ذلك رتب الله وجود تلك الجماعة من بني البشر الذين أهَّلهم وأعدهم للقيام بتلك المهمة الكهنوتية. فالشخص العادي لم يكن بوسعه الاقتراب من قدس الأقداس داخل الهيكل حيث تقدَّم الذبائح والصلوات الشفاعية الخاصة،

فالإنسان في حالته الساقطة مفصول أخلاقيا وروحيا عن الله وهو ذو طبيعة مغايرة لطبيعة الله الطاهرة، لذلك ليس باستطاعة الإنسان القدوم إلى محضر الله بنفسه. أما الكهنة الذين أقامهم الله عبر أجيال حقبة العهد القديم فقد أعطوا الحق في تمثيل بني البشر أمام المحضر الإلهي، فكان الكاهن يأخذ على نفسه مهمة إعادة تلك العلاقة الطبيعية – التي كانت بين الله وبني البشر – إلى ما كانت عليه قبل السقوط ولو بشكل جزئي ومؤقت؛ فالكاهن تقع عليه مسئولية الاعتراف العلني بخطية وعصيان من يمثلهم أمام الله، كما أنه يقوم بتقديم الذبائح الرمزية التي تعبِّر عن الرغبة في التوبة عن حالة التمرد تلك والتكفير عنها. إذن تقع على عاتق الكاهن مهمتين: الأولى تمثيل بني البشر أمام الله والثانية التشفع فيهم أمام الله. في العهد الجديد نرى أن كهنة العهد القديم لم تكن مهمتهم – رغم عظمتها وفعاليتها وجديتها – سوى مهمة رمزية، ترمز إلى الكاهن الأعظم الذي سعى هؤلاء الكهنة للتشبُّه به. إن المسيح هو المرموز إليه في الذبائح والصلوات التي قاموا بتقديمها. لعل أوضح ما ورد في الوحي الإلهي عن هذا الأمر هو المضمون الكلي للرسالة إلى العبرانيين، التي أكدت تفوُّق مركز المسيح الكهنوتي وألوهيته وتفوُّق مركزه النبوي على كافة الأنبياء؛ فبينما أشارت كتب العهد الجديد الأخرى إلى عمل المسيح الكهنوتي (راجع مرقس10: 45، يوحنا1: 29، رومية3: 24 و 25، كورنثوس الأولى5: 7، غلاطية1: 4، أفسس5: 2، رسالة بطرس الأولى2: 24 و 3: 18، رسالة يوحنا الأولى2: 2)، فإن دور الرسالة إلى العبرانيين الخاص هو شرح ذلك العمل وتوضيح أهميته، كما أنها لا تدع مجالا للشك في أحقِّية المسيح للقبه الكهنوتي المجيد. في الرسالة إلى العبرانيين دُعِي المسيح "رئيس كهنة الله" (3: 1)، و"رئيس كهنة عظيم" (4: 14)، و"كاهن إلى الأبد" (5: 6)، و"رئيس كهنة إلى الأبد" (6: 20)، و"رئيس كهنة..... قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات" (7: 26)، و"رئيس كهنة.... قد جلس في يمين عرش العظمة في السموات، خادما للأقداس والمسكن الحقيقي الذي نصبه الرب، لا إنسان" (8: 1و 2).

ومثلما تميَّز يسوع كنبي من بين جميع الأنبياء، تميَّز أيضا عن جميع الكهنة. هذا ما نراه في جانبي خدمته الكهنوتية بوضوح: أي في عمله الكفاري كفادي البشر والبديل

الحقيقي عنهم أمام الله، وفي عمل وساطته وخدمته الشفاعية كالممثل الأوحد لكنيسته المفتداة أمام الله.

بالنسبة إلى عمل المسيح الكفاري يضع الوحي الإلهي أمامنا حقيقة راسخة لا نزاع عليها، وهي أنه هو وحده الذي كان مؤهَّلا حقيقة لأن يكون فادي البشر، الذي باستطاعته معالجة معضلة سقوطهم وخطيتهم. ذبائح العهد القديم الكفارية ما كانت سوى رموز يتذكر بها بنو البشر خطيتهم ويتطلعون إلى قدوم ذلك المخلِّص الذي يُذبَح قانونيا بالنيابة عنهم. "لأن أولئك بدون قسم صاروا كهنة وأما هذا فبقسم من القائل له أقسم الرب ولن يندم أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. على قدر ذلك قد صار يسوع ضامنا لعهد أفضل وأولئك قد صاروا كهنة كثيرين من أجل منعهم بالموت عن البقاء، وأما هذا فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول. فمن ثم يقدر أن يخلِّص أيضا إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله، إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم. لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات. الذي ليس له اضطرار كل يوم مثل رؤساء الكهنة أن يقدم ذبائح أولا عن خطايا نفسه ثم عن خطايا الشعب، لأنه فعل هذا مرة واحدة إذ قدم نفسه. فإن الناموس (أي الشريعة) يقيم أناسا بهم ضعف رؤساء كهنة، وأما كلمة القسم التي بعد الناموس فتُقيم ابنًا مكملا إلى الأبد" (الرسالة إلى العبرانيين7: 21 – 28). إذن ذبيحة المسيح تختلف عن ذبائح الآخرين من عدة جوانب:

أولا هي ذبيحة حقيقية؛ فالذبائح السابقة لم تكن لها سوى فائدة واحدة وهي أنها كانت ترمز إليه، "لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا.... تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطية" (عبرانيين10: 4 ، 11)، أما يسوع فكان إنسانا طاهرا، ولا يحل محل الإنسان سوى إنسان، "لذلك عند دخوله إلى العالم يقول ذبيحة وقربانا لم تُرد ولكن هيأت لي جسدا" (عبرانيين10: 5).

ثانيا إن ذبيحة المسيح هي ذات مدى غير محدود، فهو كالكاهن الإلهي غير المحدود قدَّم ذبيحة غير محدودة الفعالية، لأن المسيح "لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية، بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا، ولا ليقدم نفسه مرارًا كثيرة كما يدخل رئيس الكهنة إلى الأقداس كل سنة بدم آخر" (عبرانيين9: 24 – 25).

ثالثا إن ذبيحة المسيح هي أبدية الأثر، "فبهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة.... فبعدما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس إلى الأبد عن يمين الله... لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدَّسين" (عبرانيين10: 10و 12 و 14).

إلى جانب الذبيحة العظمى التي قدمها يسوع كفارة عن خطايا الكثيرين، فإن وظيفته الكهنوتية لها جانب آخر هو شفاعته بالنيابة عن مفديه. في هذا الصدد يقول الرسول يوحنا: "إن أخطأ أحد (أي من المؤمنين) فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار" (رسالة يوحنا الأولى2: 1). والشفيع هو الشخص الذي يُعِين المذنبين ويدافع عنهم، وهو محامي الدفاع أمام محكمة العدالة الإلهية. بالنسبة للمؤمنين، "من هو الذي يدين؟ المسيح هو الذي مات، بل بالحري قام أيضا، الذي هو أيضا عن يمين الله الذي أيضا يشفع فينا" (الرسالة إلى رومية8: 34). "هو حي في كل حين ليشفع فيهم" (عبرانيين7: 25). إنه "يظهر الآن أمام وجه الله" لأجل المؤمنين (عبرانيين9: 24). أما عظمة شفاعة المسيح فقاعدتها هي عظمة ذبيحته الكفارية. أما نتيجة تلك الشفاعة النهائية فهي في مجيئه الثاني، "هكذا المسيح أيضا بعدما قُدِّم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه" (عبرانيين9: 28).

3- المسيح الملك

إنه من الطبيعي جدا أن يكون للمسيح، وهو الإلهي الطبيعة، نصيبه الأزلي في التسلط على الكون، ذلك هو حقه الإلهي. لكن المسيح له مكانته الملكية الخاصة بصفته الوسيط، بين الله والناس، مخلص بني البشر الخطاة. إذن المكانة الملكية للمسيح، التي نحن بصددها الآن، تتعلق به كابن الله المتجسد، فهو في طبيعته البشرية إنسان أعطي سلطانًا خاصًّا لتكميل ملكوته الروحي في الكنيسة، وذلك بحفظها وحمايتها وقيادته لها نحو المجد الأبدي. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن المسيح أيضا، بصفته الفادي والوسيط، لديه سلطان خاص كملك على كل المخلوقات، بما في ذلك الأبالسة والبشر غير المؤمنين. هذا بالطبع يرجع إلى مكانته الملكية الفريدة في النهاية، عندما "يضع جميع أعدائه موطئا لقدميه" (مزمور110: 1)، وحين يكون قد أخضع الله له الكل حينئذ الابن نفسه أيضا سيخضع للذي أخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل (راجع رسالة كورنثوس الأولى15: 24 -28).

إن الجانب الأول من المكانة الملكية للمسيح إذن يرتبط بعلاقته بالمفديين؛ فهو ملكهم الروحي وله السلطان على خلاص وفداء النفس. تلك المسئولية كانت هي أيضا ضمن مواصفات المسيح المنتظر، التي كان قد سبق للمشورة الإلهية وقضت بها: "أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي" (مزمور2: 6). هذا هو الوعد المعطى للملك داود الذي كان رمزا للمسيح الملك الحقيقي. إن الوحي الإلهي يقول في هذا الصدد: "أقسم الرب لداود بالحق، لا يرجع عنه. من ثمرة بطنك أجعل على كرسيك" (مزمور132: 11). لأجل هذا السبب دُعي يسوع "ملك اليهود" و"ابن داود". ولعل هذا هو السبب الرئيسي من وراء ما تضمنه الوحي الإلهي لتلك القوائم الطويلة عن أنساب المسيح، بسبب ضرورة إثبات صلة قرابته بالملك داود. هذا وإن الوحي الإلهي كان قد سبق ووصف المسيح بأن "تكون الرياسة على كتفه... لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبِّتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد...." (نبوة إشعياء9: 6 – 7، راجع أيضا نبوة ميخا5: 2 وزكريا6: 13). أما بشارة الملاك لمريم عن المسيح

الموعود بقدومه فكانت: "هذا يكون عظيما وابن العلي يُدعَى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية" (لوقا1: 32 – 33). هذا ما أقرت به الجماهير الغفيرة عندما هتفت قائلة: "مبارك الملك الآتي باسم الرب" (لوقا19: 38)، أما يسوع فقد أشار إلى طبيعة مملكته تلك عندما دحض أقوال زعماء اليهود الذين اتهموه بالتآمر على نظام الحكم الروماني، فقال: "مملكتي ليست من هذا العالم..." (يوحنا18: 36). هذا الجانب الروحي للمكانة الملكية للمسيح هو في كونه مَلِكا على شعبه من المؤمنين. وهذه المكانة تتخذ إطارا روحيا على قلوب وحياة المؤمنين ولها بُعد روحي ألا وهو خلاص الخطاة. أما وسائط هذا الجانب من ملكه فهي روحية أيضا: فهو يحكم بواسطة كلمته وروحه، وهو يعبِّر عن مُلكه هذا بواسطة تجميع وحكم وحماية وتكميل كنيسته. إن مُلك المسيح هذا يسمَّى في العهد الجديد "ملكوت الله"، وقد دُعي في الإنجيل حسب كتابة متى "ملكوت السموات"، ولا يخفى على بال أحد أن متى وهو يكتب أصلا لمجموعات من اليهود أراد أن يتجنب استعمال التعبير "ملكوت الله" لأن الكثيرين من اليهود كانوا قد تعوَّدوا على تفضيل الإشارة إلى الأمور التي تخص الله بتعبير "السموات"، ذلك أنهم آثروا التقليل من استخدام اسم الله في أحاديثهم اليومية. ومهما تكن التسمية فإن أعضاء ذلك الملكوت الروحي، الذي يملك عليه المسيح، هم المواطنون أعضاء كنيسته الحقيقية المفدية التي اقتناها بدمه الطاهر (راجع أعمال الرسل20: 28).

لكن للتأثير الروحي لمملكة المسيح، الذي هو ملكوت النور، بُعدٌ أوسع من حياة المؤمنين. فحيثما وجدت كنيسته وتزايد تأثيرها على المجتمع يلاحظ نمو غير عادي للوفاء والمحبة والعدالة وروح الطهارة والقداسة والجد والتضحية والسلام. هذا ما يعكسه مثلا الزارع والشبكة اللذَيْن ضربهما المسيح نفسه (راجع متى13: 24 – 30و 47 – 50). فالمسيح عندما يملك على قلوب البشر ينقلهم من ملكوت الظلمة – حيث هم بالطبيعة مستعبدين للشر – إلى ملكوت النور حيث كل جمال وحسن وصلاح (راجع متى 12: 28، لوقا17: 21، رسالة كولوسي1: 13)، وإذ يرى الناس حياة هؤلاء – المتغيرة والمخلوقة من جديد بواسطة روح المسيح – يمجدون الله (متى5: 16). من هنا كان امتداد تأثير ملكوت المسيح.

لكن ملكوت المسيح المعطى له بعد التجسد امتد بشكل أوسع إثر قيامته، لذلك صرَّح لتلاميذه قائلا: "دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (متى28: 18). كان هذا جزءا لا يتجزأ من مقاصد الله الأزلية وعمله "الذي عمله في المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السموات، فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمَّى، ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضا، وأخضع كل شيء تحت قدميه وإياه جعل رأسا فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده ملء الذي يملأ الكل في الكل" (الرسالة إلى أفسس1: 20 – 23). ومع أنه قبل تجسده كان يتمتع بسلطان كهذا على كل شيء، إلا أنه بعد قيامته رسَّخ ملكه على الكل بشكل جديد، وهو في ذلك يتحكم في ظروف مسار التاريخ البشري بأسره لأجل تكميل عمله الكفاري ولأجل حماية كنيسته من كل خطر من شأنه عرقلة مسيرتها الروحية نحو الكمال الذي أراده لها.

رابعا: المسيح مكمِّل نبوات الوحي الإلهي

إن أسفار العهد القديم تحتوي على الكثير من الإشارات والنبوات التي وجهت المؤمنين وهيَّأتهم لمجيء المسيح إلى عالمهم البشري. هذا واضح جدا لدرجة أن الوحي الإلهي يبدو وكأنه قد رسم في تلك السجلات طريقا إلى استراحة نهائية بديعة. إن ظهور المسيَّا الآتي يتضح تدريجيا عبر صفحات العهد القديم كالغاية النهائية لكل شيء، حين يكشف الرب الإله عن نفسه في أبهى وأوضح الصور فيصبح "عمانوئيل"، أي أن الله حل بين البشر.

لقد كان من الضروري أن يتخذ الأمر ذلك الشكل التدريجي في تاريخ البشر، فلو أن الوحي الإلهي كشف عن عملية التجسد الإلهي بشكل مفاجئ لما كان في وسع الناس فَهْم الأمر على الإطلاق. كان لا بد لتلك الخطوات التمهيدية أن تأخذ مجراها؛ لأن الأمر لم يقتصر على مجرد تحضير الظروف التاريخية والإجتماعية والروحية الملائمة لمجيء المسيح، بل إن البشر أنفسهم كانوا بحاجة إلى تهيئة لكي يفهموا الظروف والأحداث، ومن ثم معنى التجسد الإلهي والقصد منه. من هنا كانت الطبيعة التدريجية لنبوات العهد

القديم المختصة بالمسيح. أما تحقيق السيد المسيح لمواصفات ومتطلبات تلك النبوات فهو مذهل في دقَّته وتفاصيله؛ لأنه يعرِّف المرء بأن المسيح هو وحده الذي يعطي مسار الوحي الإلهي (في العهد القديم) مغزاه وقصده وكماله.

ولعل المدهش في هذا الأمر هو كون نبوات العهد القديم، الخاصة بقدوم المخلِّص، كانت قد بدأت مع بداية سجلات الوحي الإلهي نفسها، وسارت جنبا إلى جنب مع تطورات الأحداث. نرى مثلا أنه منذ البداية وفي مطلع التاريخ البشري، عندما حدث السقوط لدى عصيان أمر الله والأكل من الثمار المحرمة للشجرة التي في وسط الجنة، وعَدَ الرب آدم وحواء بأنه من نسل حواء سيأتي من يسحق رأس الحية التي دبرت المكيدة (راجع تكوين3: 15). إن لهذا علاقة خاصة بميلاد المسيح العذراوي من امرأة والذي تعرضنا له سابقا. من هنا طبَّق الوحي الإلهي ذلك الوعد على أسلوب مجيء المسيح بالقول: "... لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودا من امرأة..." (الرسالة إلى غلاطية4: 4). كان لا بد إذن للمسيح، نسل المرأة، أن يتصارع وجها لوجه مع الشيطان مدبر السقوط؛ لأن المسيح هو المخلِّص من هذا السقوط. لقد واجه المسيح إبليس في مرحلة تجاربه التحضيرية قبل شروعه في خدمته العلنية (راجع لوقا4: 1 – 14)، هناك دحره وأثبت تفوُّقه عليه. كما أنه صارع إبليس عندما أخرج أجناده من سكناهم في عشرات البشر الذين كانوا قد سيطروا عليهم واستعبدوهم؛ لأجل ذلك دُعي محرِّرا (راجع مرقس5: 1 – 20 ولوقا4: 20 – 22).

لقد سبق مجيء المسيح إلى عالمنا كثيرون ادَّعى كل منهم بأنه "المخلص المنتظر"، كما جاء بعده كثيرون ادعوا نفس الادعاء، لكن سرعان ما سقطت ادعاءاتهم وذهبت أدراج الرياح بمجرد أن كشف الواقع كيف أن المسيح وحده هو الذي انطبقت عليه أوصاف وتوقعات نبوات الوحي الإلهي. لعل هذا هو السبب الرئيسي من وراء وجود تلك التفاصيل الدقيقة في النبوات عن المخلص المنشود. البعض يتساءلون عن أهمية تلك اللوائح الطويلة لسلسلة أنساب المسيح التي أوردها الإنجيل، لكن تلك الأهمية هي كامنة فعلا في ضرورة التيقُّن المطلق من صحة هويَّته؛ فقد كان مفروضا أن يأتي من نسل

إبراهيم عبر ابنه إسحق وحفيده يعقوب بالذات، من سبط يهوذا ومن نسل داود بالذات أيضا. كما كان من المفترض أن يولد في بيت لحم وأن يقضي بعضا من طفولته في مصر وتكون نشأته في الجليل. كل هذه كانت أدلة وبراهين تاريخية توفرت فيه.

لكن نبوات الوحي الإلهي تطرَّقت لمواصفات أخَر يجب توفرها في المسيَّا المنتظر، ولها علاقة حيوية ومباشرة بمهمته الخلاصية كالإنسان المعصوم عن الخطأ، المؤهَّل لأخذ مكان البشر، وكالله المتجسِّد الذي بوسعه إكمال المهمة المرسومة. من جهة طبيعته البشرية كان لا بد وأن يتمتع بعاطفة قوية ومحبة قلبية لبني البشر، تعبيرا عن استعداده للتألم والموت عنهم، كما كان من المفروض عليه أن يبرز كإنسان فوق العادة وفريد من نوعه (راجع إشعياء11: 2 – 5و 42: 2 – 6). أما من جهة طبيعته الإلهية فقد كان من الضروري إدراك وجوده المسبق وكونه قد "أتى" إلى عالم البشر من عالم آخر (راجع إشعياء63: 1). كان من المفروض أيضا أن تنطبق عليه أوصاف لا تنطبق إلا على الله، فيُدعَى "عمانوئيل" (أي أن الله حل مع البشر)، و"يسوع" (أي المخلِّص) و"الإله القدير" و"الأب الأبدي" و"رئيس السلام" (إشعياء7: 14 و 9: 6).

كان يجب أن يكون نور العالم الذي يقضي على الظلمة (قارن إشعياء9: 2 مع يوحنا8: 12)، فلو أن بني البشر لم يكونوا على وعي بالظلمة الروحية حولهم، لما كان لمجيء النور الروحي من معنى. الواقع أن أحداث وسجلات العهد القديم لم تقتصر إشاراتها، في التمهيد لمجيء المسيح، على النبوات الواضحة والمباشرة، لقد كان كل شيء يشير بصورة أو بأخرى لمجيء المخلِّص ويمهِّد له. وقد أجمع علماء الكتاب المقدس من المؤمنين على أن معاملات الله مع شعبه في العهد القديم أبرزت بوضوح الإفلاس الروحي للبشر وفشلهم الذريع في إرضاء الله بواسطة مجهوداتهم الدينية الخاصة، مما حتم أن يكون الحل للمشكلة من خارج نطاق قدراتهم الشخصية. كان من الواضح إذن أنه إذا أمكن الوصول إلى حل لمعضلة فشل البشر في إرضاء عدالة وقداسة الله، فإن ذلك لا بد أن يأتي عبر مبادرة إلهية خاصة. لكن مع كل ذلك كان على البشر أن يدركوا حاجتهم إلى تقديم ذبائح رمزية للتكفير عن خطاياهم، كما كانوا في حاجة إلى

إدراك مدى الهوة الروحية التي تفصلهم عن قداسة الله، مما تطلب وجود الكهنة الوسطاء بينهم وبين الله. فلو أن المسيح جاء فجأة لتقديم نفسه كالكاهن والوسيط والذبيحة الحقيقية التي تحطم الحاجز بين الله والناس لما فهم بنو البشر مهمته على الإطلاق. لقد كان عليهم إدراك وجود ذلك الحاجز الروحي الذي أقامته الخطية بينهم وبين الله، ومن ثم حاجتهم إلى إزالة ذلك الحاجز. عندئذ فقط يأتي "ملء الزمان" أي يصبح كل شيء جاهزا ومعدا لعملية التجسد والخلاص.

إن التاريخ يشهد بشكل قاطع لواقعة الصلب، كما أن النبوات كانت قد سبقت وتحدثت عنها بالتفصيل (راجع نبوة اشعياء53)، لكن الكتاب المقدس بعهديه يطرح الأمر على شكل ضرورة مُلحَّة ومحتومة لاسترجاع تلك العلاقة الروحية المفقودة بين الله الخالق وبني البشر المخلوقين. فمجيء الأنبياء ونزول الشرائع الإلهية وكافة متضمنات الوحي الإلهي لهم، جميعها لها أدوارها الخاصة في الإعداد لمجيء المسيح. إضافة إلى ذلك فإننا نجد أن مسار التاريخ البشري حول محيط شعب الله في العهد القديم، ابتداء من عبوديتهم في مصر وخروجهم منها إلى تأسيس مملكتهم تحت قيادة الملك داود وابنه سليمان وتطورها التدريجي وصولا بتحطمها وسبي الأمة بأسرها إلى بلدان نائية، كل هذا إنما أشار باتزان وانسجام وترابط كامل إلى ضرورة تدخل الله المباشر وإنجازه لعملية الخلاص.

لكن دور النبوات التي قدمت إشارات ومواصفات مباشرة عن المخلّص الآتي يبقى جوهريا في العملية كلها. لقد كان من الضروري أن يُعطى البشر الأدلة القاطعة والعلامات الفارقة التي تمكِّنهم من التمييز ما بين كل من ادَّعى كذبا بأنه المسَّيا المنتظر وما بين صدق المسَّيا الحقيقي. فلو أن الأمر ترك لهم للتخمين؛ لفقدت سجلات الوحي الإلهي مقصدها وحيويتها وانسجامها، ولكان الباب مفتوحا على مصراعيه أمام كل مدَّع بالنبوة أن يطبق على نفسه مواعيد الله بقدوم المخلِّص.

إن الأنبياء أنفسهم، الذين أوحى لهم الله بتفاصيل قدوم المخلص الدقيقة، اعتبروا أنفسهم أدوات طيِّعة في التمهيد لذلك الحدث الذي كان سيقع في "الأيام الأخيرة" أو في "ملء الزمان"؛ فعبر صفحات الكتاب المقدس لم يبدر على لسان أحدهم، ولا حتى تلميح واحد، على أنه هو أفضل الأنبياء أو خاتمتهم. كل واحد منهم أدَّى دوره في التمهيد لمجيء المسيح بدون تردد أو رغبة في تحسين مركزه الشخصي أو تجميع أتباع له. عندما تحدَّث موسى عن مجيء المسيح قال للشعب: "له تسمعون" (تثنية18: 15) وعندما تحدث داود دعاه "ربِّي" (مزمور110: 1) حتى يوحنا المعمدان قال عن المسيح: "الذي يأتي بعدي قد صار قدامي، الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه" (يوحنا1: 27)، "هذا هو ابن الله" (يوحنا1: 34)، "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا1: 29). كثيرون غيرهم من الأنبياء كان السيد المسيح نفسه قد أشار لأقوالهم مصرِّحا: "أنه مكتوب في الأنبياء ويكون الجميع متعلمين من الله. فكل من سمع من الآب وتعلَّم يُقبل إليَّ. ليس أن أحدا رأى الآب إلاَّ الذي من الله. هذا قد رأى الآب. الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية. أنا هو خبز الحياة. آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم" (يوحنا6: 45 – 51). إذن فالمسيح نفسه رأى أن دور كل الأنبياء وكل متضمنات الوحي الإلهي كانت لأجل التحضير لمجيئه. عندما تذكرت المرأة السامرية أقوال الأنبياء قالت للمسيح: "أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء"، فكان رد يسوع عليها: "أنا الذي أكلمك هو" (يوحنا4: 25 – 26). وعندما قال له اليهود: "ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات. والأنبياء ماتوا. من تجعل نفسك؟" لم يتردد يسوع في أن يكشف تفوقه وعظم مكانته فوق كل الأنبياء فأجابهم: "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح... قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" (يوحنا8: 53 ، 56، 58).

خلاصة القول إذن هي أن المسيح لم يحقق نبوات العهد القديم فحسب، بل إنه كان محور وقصد كل متضمنات الوحي الإلهي.

الخاتمة

حياة يسوع المسيح
تُحقق المخطط الإلهي المرسوم

إننا إذ ندرس تعاليم المخلِّص كما ترد في الإنجيل المقدس، ندرك توًّا أن السيد المسيح كان قد جاء إلى عالم البشر لإتمام رسالة خاصة، وأنه عاش حياته وحقق عمله الخلاصي تبعا لمخطط إلهي رسم مسبقا. وكان ذلك المخطط واضحا وجليا أمام عينيه كما يظهر لنا منذ بدء حياته العلنية. وبالرغم من أهمية كل لحظة في حياته فإنه لم تَبْدُ عليه ملامح استعجال الأمور، إذ أنه كان لديه الوقت الكافي للقيام بجميع تفاصيل مهمته الخلاصية، كذلك لم يكن فريسة للظروف ولو مرة واحدة، بل كان دائما سيدها وموجهها. إن معارضة البشر لم تبعده عن هدفه المنشود، إذ أنه سار قُدما نحو تحقيق الرسالة التي أسندها الآب إليه.

لقد كانت حياة المسيح بأكملها تسير نحو إنجاز ذلك المخطط الإلهي. من هنا كان قوله في مستهل سيرته العلنية "إنه ينبغي لي أن أبشِّر المدن الأخر أيضا بملكوت الله لأني لهذا قد أرسلت" (لوقا4: 43)، ثم "ابتدأ يعلّمهم أن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيرا ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل، وبعد ثلاثة أيام يقوم" (مرقس8: 31). هذا وقد أخبَر ملاك الرب بعض أتباعه بقيامة سيِّدهم من الموت في فجر ذلك اليوم المشهود قائلا: "ليس هو ههنا لكنه قام. اذكرن كيف كلمكن وهو بعد في الجليل قائلا إنه ينبغي أن يسلَّم ابن الإنسان في أيدي أناس خطاة ويصلب وفي اليوم الثالث يقوم" (لوقا24: 7).

في بحثنا لموضوع وجوده الأزلي السابق لتجسده أشرنا إلى التعابير التي يستعملها الإنجيل للإشارة إلى ذلك مثل "جاء" أو "أرسل" لينجز مهمة معينة. أما بشأن إنهاء مهمته وتركه للعالم فإن ذلك كان ضرورة إلهية. والخطة الإلهية للمسيح تضمنت أحداثا مثل رحلة المسيح الأخيرة إلى القدس ورفض زعماء الكهنة وشيوخ اليهود له، ثم خيانة يهوذا، فالقبض عليه، ومن ثم تألمه وموته على الصليب وقيامته في اليوم الثالث.

لم تكن هذه الأمور أمورا متوقَّعة أو سبق وأخبرت بها نبوات الأنبياء فحسب، بل إن الإنجيل عَرَضها جميعا كأمور حتمية في عملية إنجاز رسالة المسيح الخلاصية؛ فبعد قيامته من الموت قال المسيح لتلاميذه: ".... هذا هو الكلام الذي كلمتكم به وأنا بعد معكم أنه لا بد أن يتم جميع ما هو مكتوب عني في شريعة موسى والأنبياء والمزامير، حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب. وقال لهم هكذا هو مكتوب وهكذا ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث، وأن يبشَّر باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم" (لوقا24: 44 – 47).

إن قيام شخص، يتمتع بمكانة إلهية كهذه، بمهمة عظمى كهذه، يتضمن في الواقع اتضاعا في كل خطوة من خطوات تلك المهمة. لم يتعرض المسيح للإهانة عبر الفقر والإرهاق والجوع فحسب، بل إنه اختبر مقاومة مريرة من معارضيه والسلطات الدينية المعاصرة له. واختبر المسيح ذروة الاتضاع في آلامه النهائية وموته ودفنه. وكما ذكرنا سابقا كان قد أظهر المسيح اتضاعه بأخذه على نفسه طبيعة بشرية، مولودا كطفل ضعيف، ومعرضا لكافة محدوديات وضعفات الطبيعة البشرية لثلاث وثلاثين سنة. ومع ذلك فإن رسالته توصف في الإنجيل على أساس كون كل عنصر فيها تم على أكمل وجه وبصورة عفوية لا يعتريها تكلف. فكل فكرة وردت للسيد المسيح للتهرب من تتميم رسالته عبر استخدام قوته الفائقة للطبيعة وربح مجد البشر، نظر إليها كتجربة ابتدعها الشيطان. لقد جاء إلى عالمنا لإتمام

رسالة واحدة وصريحة وهي أن يكون كفارة عن الخطية بواسطة آلامه وموته. وكل الأمور التي قادت إلى هذا العمل الأساسي كانت قد رُسمت من قبل الله بالذات ولم يقدر أي سلطان بشري أن يغير من مجراها.

مما سبق يظهر لنا بكل جلاء أن آلام وموت المسيح كانت منجزات وانتصارات لا كوراث وفواجع. لقد حدد هو بنفسه، وليس أعداؤه، تاريخ وساعة الصلب. ومع أن عملية الصلب بدت غريبة ومذهلة لتلاميذه، إلا أنها لم تكن سوى تتمَّة لمهمة جاء للقيام بها لفتح باب جديد وثابت لملكوت من العزة والحياة.

إن سفر أعمال الرسل يعكس جمال السلطان والتوجيه الإلهيين عبر حياة يسوع المسيح؛ فعملية الصلب مع كونها أبشع شر في تاريخ البشرية إلا أن سفر الأعمال أشار إليها على أساس كونها من ترتيب إلهي مسبق. نقرأ مثلا "لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته، هيرودس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب إسرائيل، ليفعلوا كل ما سبقت فعينت يدك ومشورتك أن يكون" (أعمال الرسل4: 27و 28). وقد وعظ بطرس الرسول أهل القدس قائلا: "هذا (أي يسوع) أخذتموه مسلَّما بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه" (أعمال الرسل2: 23). ثم لا يجب أن يفوتنا أن نلاحظ مدى السلطان العجيب الذي عبَّر عنه يسوع المسيح في معرض أحاديثه، فقد تميَّز عن الأنبياء الذين سبقوا مجيئه، إذ كان كل واحد منهم يتنبّأ باسم الرّبّ قائلاً: "هكذا يقول الرب"، لكن المسيح لم يلجأ إلى نفس الأسلوب، ولم يشر إلى سلطة خارجة عنه، بل كان يضع نفسه في علاقة الله بشعبه؛ ولذلك تكلم باسمه وبسلطته الشخصية النهائية، ففي الإنجيل حسب متى – حيث وردت موعظة السيد المسيح على الجبل – تكلم له المجد بمكانة المشرِّع المتسلط. وقد ذكر المسيح أوامره مرارا وتكرارا على أساس أنها جزء من شريعة الله وقال: "سمعتم أنه قيل..... وأما أنا فأقول.....".

إضافة إلى ذلك فإن المسيح اعتبر المضطهَدين لأجله معادلين للأنبياء الذين أضطُهِدوا في سبيل الله (متى5: 11و 12)، وكذلك أعطى نفسه حق المشرِّع الأعلى الذي يسمح للبشر بالدخول في ملكوت السموات إذ قال: "ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة... فحينئذ أصرح لهم إني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (متى7: 21 – 23). كما كشف البشير متى عن تفوُّق المسيح على سائر معاصريه من علماء إسرائيل قائلا: "فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بُهتت الجموع من تعليمه لأنه كان يعلّمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة". وقد نسب المسيح لنفسه سلطة تفوق سائر الفرائض والشرائع المقدسة التي أوحى بها الله لشعبه؛ فدعى نفسه"... أعظم من الهيكل ... ابن الإنسان هو رب السبت" (متى12: 6،8) و"السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول" (متى24: 35).

لا شك إذن أن المسيح عرف عن نفسه، لا كمن هو في حاجة إلى خلاص بل كمخلِّص... وليس كعضو في جماعة الإيمان (أي الكنيسة) بل كرأسها... ليس كمؤمن مثالي بل كمن هو موضوع إيمان جميع المؤمنين. وهو لم يُصَلِّ للآب فقط بل هو من تُرفع باسمه الصلاة. ثم أخيرا قدَّم نفسه ليس معلّما للبشر فحسب بل ربًّا وسيّداً لهم.